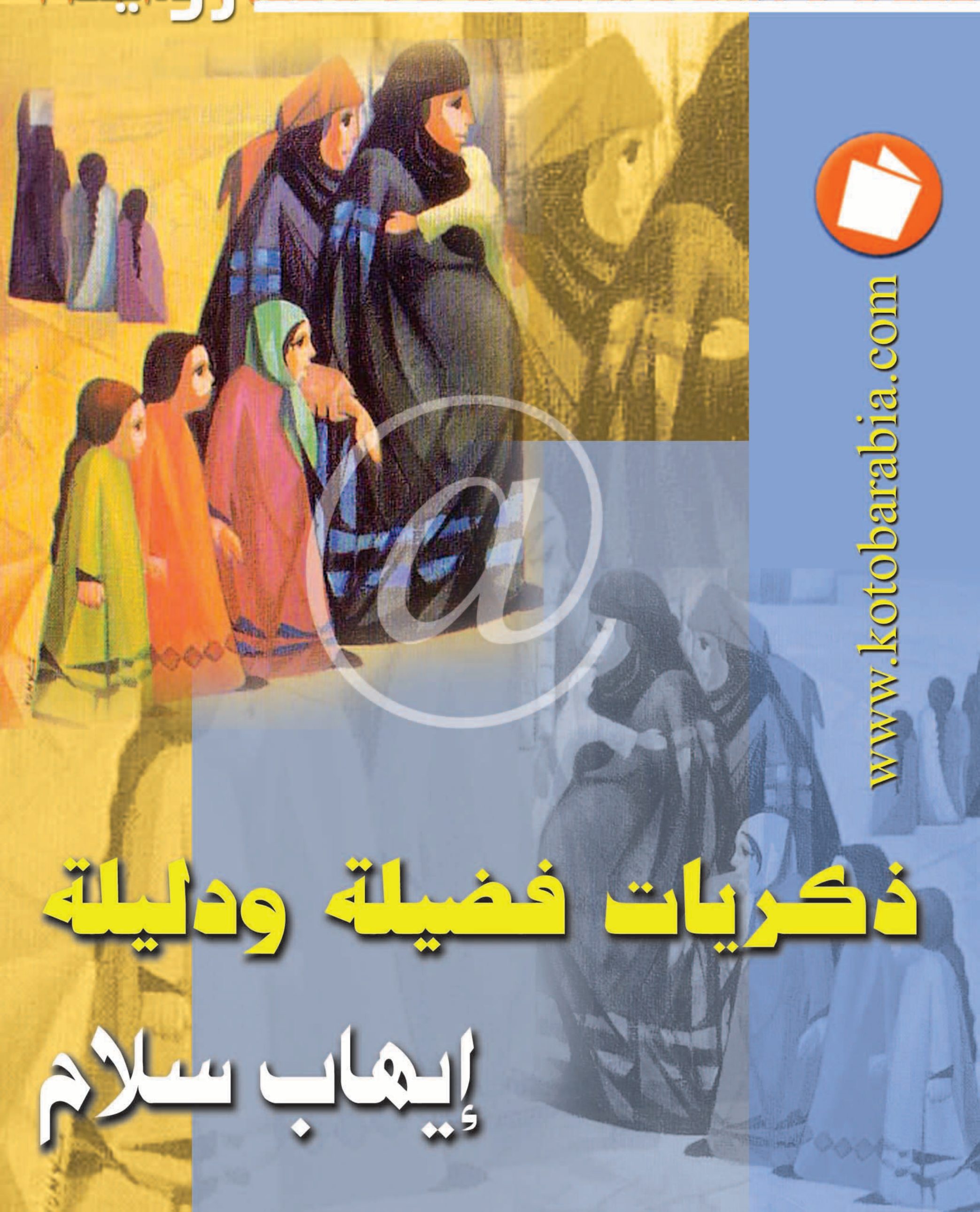
رواية



ذكريات فضيلة ودليلة

إيهاب سلام

ذكريات فضيلة ودليلة
رواية
د . إيهاب سلام

تمهيد

جلست فضيلة ودليلة تحت الشمسية. وأمواج البحر تتلاطم أمامهما . وتتكسر في ذل أمام الرمال . حتى إذا ما وصـلت إليها ركعت في ضعف ثم توارت بين الرمال .

قالت فضيلة :

- انظري هذا البحر الهائج كيف تستذله الرمال .

قالت دليلة :

- البحر مملكة والبر مملكة . ولكن داخل البحر قد يبـدو لا فوران . وتحت اليابس قد يكون هناك بركان .

قالت فضيلة :

- هذا مثلك يا دليلة . شكلك ثائر ولا ينبئ عما في داخلك من ركود .

قالت دليلة :

- والبر مثلك . وجه هادئ ولا يدل عما فـي أعماقـك مـن فوران

قالت فضيلة :

- إيه يا دليلة لا تذكريني . ظن الناس أنني العفة ذاتها . ولم أعرف طريقي إلى العفة يوماً وقت أن عرفوا .

قالت دليلة :

- وظن الناس أنني دعارة متحركة . ولم أك إلا طيبة القلب حنونة .

وانسابت بينهما الذكريات .

فضيلة

أتعرفين كيف تعرفت عليك . كنت عشيقة الرجـل الـذي كان ينوي الزواج منك . رأيتك معه في فندق سمير أميس ، تجلسين في وقار مصطنع ، فأنت من طبيعة نارية . ولو أني من طبيعة مائية أو قولي ترابية . وكان يـتكلم بهمـس لـم اسمعه . وأنت الثرثارة لا تتكلمين . كيف ضبط نفسك فـي هذا الوقت .

لا أدري . يبدو أنك كنت تتقنين التمثيل في ذلك الزمان . لم أعرف وقتها كيف تعرف عليك . وقررت في هذه اللحظة أن أتتبعك وأعرف كل شيء عنك . ركبـت سـيارتي وراء سيارته وهي تقلك ولم تفلت مني إشارة واحدة . كنت أسـير ناحية اليمين ، وهو يسير ناحية اليسار . لم أتواز معه حتـى لا يكتشف أنني أترصده فيزوغ مني . وأعبر الطريق قبل أن ترفع الراية الحمراء . وأقف عندما يتوقف . وأنحرف كمـا ينحرف . وتركك عند عمارة كبيرة مرتفعـة الأدوار تكـاد تصافح السحاب . ولعلك وقتها طلبت منه ذلك حتى تـذهبي إلى عمارة أخري قريبة أقل قيمة وأقل جمالاً . ولعلك أقنعته أنك لا تريدين أحداً يراك معه . وأشرت إليه بعلامة الوداع . وانطلق بسيارته . لم أتتبعه فأنت كنت ضالتي . تكلمت مـع بواب العمارة . وانتظرت أن تدخلي من الممر الملكي للبرج لكن هيهات . لقد اتجهت إلى سيارة مرسـيدس تقـف أمـام العمارة وركبت . وانطلقت كالسهم وأنا في أثرك .

يمكن أن أقول إن عشيقي - خيري بك عبـد الـرزاق - كان ينطلق بسرعة متوسطة . أما أنت فقد أسـرعت كأنـك تريدين أن تسبقي الضوء . لا تريدين أن تمشي كالزمن بطيئاً بطيئاً .. كأنه فيلم ممل . استغربت أن لا تصعدي إلى البرج العالي وتمضي إلى مكان آخر . دفعني الفضول أن أعرف . تأكدت أن وراءك سراً عسير المنال . ولو كشفت هذا السـر فسوف أهدم علاقتك مع خيري عبد الرزاق . لا بد أن السر فضيحة متخفية محجبة كمجرم هارب من العدالة يستتر وراء نقاب . ويقلد النساء المحجبات . أنت لا تتصورين ما كنـت سأفقده لو تزوجك خيري ! .. ثروة طائلة تسد عين الشمس . وقولي حينئذ لعين الشمس ألا تلهب من حولها .

بوغت فعلاً بدخول سيارتك المرسيدس إلى قصر كبير في شارع الهرم . من القصور التي لم تجر عليها يـد الـزمن . ولم يلمسها بلدوزر الإزالة . وبجانب هذا القصر كانت هناك عمارة شاهقة . أعرف واحدة فيها من بنات الهوى . زاملتها زمناً في ملهى ليلي . وأدركت أنها الوحيدة التي سوف تدلني على ساكنة القصر أو أهل ذلك القصر .

التمست مكاناً بجانب العمارة . ونهض البـواب يحييـنـي فلطالما زرت فيفي في هذه العمارة . ولطالما دسسـت فـي جيبه جنيهاً أو جنيهين ليشتري بها سـجائر . مـع أنـي لا أعرف ما إذا كان يدخن أو لا يدخن . ولولا جنيهـاتي مـا نهض ولا رسم علامة السلام العظيم . ولما جرى وفتح لـي

باب المصعد . ولما ذكرني بأن فيفـي تسـكن فـي الـدور الخامس .

استقبلتني فيفي نصف ناعسة ، فالوقت لم يكن قد تعـدى الواحدة بعد الظهر . ولعلها كانت تنام من السادسة صـباحاً حتى الرابعة أو الخامسة مساء . لتبدأ سهرتها فـي الملهـى الليلي بعد ساعات . ويبدو أن السهر المتواصل مص عودها وجعلها لا تزيد على أكثر من خمسة وأربعين كيلو جـرام . ووقتها كانت الموازين قد تغيرت من الرطـل والأقـة إلـى الجرام والكيلو جرام . أراد المسـئولون وقتهـا أن يرفعـوا الأسعار فلا يهتم أحد بعمليات حسابية يومية ليحسـب قيمـة رطل اللحمة ذي القروش التسع بكيلو اللحمـة ذي الثلاثـين قرشاً .

مدت يدها على الفور إلى علبة سجائرها وسألت :

- ما الذي قذف بك علي في هذه الساعة ؟ ..

قلت بلا مبالاة :

- كنت أمر من شارع الهرم ، فتذكرت انك تسكنين هنـا فقررت أن أزورك وأتعرف على أحوالك .

- والله لا يزال في الناس خير .

استثقلت استقبالها ودمها وحركاتها ، فوجـدت أن خيـر الأمور الدخول في جسم الموضوع دون تأن :

- لم أظن أبداً أن بجوارك هذا القصر لا يزال باقياً .

نفثت دخان سيجارتها . وكانت قد أشعلتها بعصبية .

- إنه قصر دليلة شكري . مليارديرة يا ابنتي تعيش فيـه هي وأولادها .

- أولادها ؟ ..

- لم نشاهد لها زوجاً ولكن شاهدنا لها أولاداً .

- عجيبة .

- يبدو أنها تتبنى الأولاد ، مثلمـا تفعـل تلـك المغنيـة الزنجية .. لا أعرف اسمها .

ولم أكن أعرف اسمها أنا الأخرى ، فأنصت بفضول . ثم سألت لما توقفت عن الكلام . وقد جلست وهي تضع ساقيها على المقعد المذهب في حجرة استقبالها . وساعدها ارتداؤها المنامة النسوية على عدم الكشف عن ساقيها النحيلتين.

- وكم عدد الأولاد ؟

- جرمز .. جرمز ... يا ابنتي . المهم أنني لم أرها يوماً حاملاً .. ولم أر أولادها صغاراً ...

نهضت وأنا أقول لها :

- ومتى ترينها . الناس تعمل صباحاً وأنت تنامين . وتنام في المساء وأنت تستيقظين . أتركك الآن لأن شـكلك ثقيـل الظل .

قامت تصافحني وتقبلني كأنما وافقت على انصرافي بهذه السرعة وبهذه السهولة . ولما كانت صداقتي بها محدودة فلم أهتم باستقبالها البارد ، ووداعها المثلج .

التقيت بخيري عبد الرزاق في بيتي مساء . وقلـت لـه بسخرية :

- أتريد أن تتزوج من امرأة لها ثلة من الأولاد .
نظرني بسذاجة تخفي جبالاً من المكر وهو يسأل :
- أولاد .. من هي ؟ ..
ضحكت وأنا أقول :
- دليلة شكري .. يا معلم .
ونهضت لأصب لنفسي كأساً وأنا أقول :
- لك حق .. فهي مليارديرة .
بوغت وهو يقول :
- دليلة شكري هذه سكرتيرتي .. ومرتبهـا الشـهري لا يتجاوز مائتين وعشرين جنيهاً .. ولا زالـت عـذراء لـم يمسسها بشر .

دليلة

إذاً فأنت كنت السبب في تباعد خيري عني ، فوجئت بـه يقول لي إنني امرأة ولست عذراء . وأن لي أولاداً . ولست عزباء . وأنني غنية وأدعي الفقر . سخرت منه وقلت له إن كان يريد أن يقطع علاقتي به فلا أهمية لذلك عندي . كنـت في ذلك الوقت قد انشغلت بآخر جاء إلى الشركة . أتعـرفين إنه فراش .. ساعي بالشركة لكن القلـب ومـا يريـد ! .. ولعلمك فإن خيري كان رئيس مجلس إدارة الشـركة . قـد تقولين إن ذوقي رديء ، ولكني هكذا أعجب بالوسيم الأنيـق . ساعي ولكنه نظيف ومهندم . استغرب الموظفـون هـذه النظافة والأناقة لكنه فسرها أنه كان يعمل في لبنان وشـرب الحضارة من هناك . وهناك السعاة لا يفترقون عن البكوات

. وهو لا يفترق عنهم في شيء . أبيض الوجـه . مـدور . شعره ذاب على جبينه . يرفع خصلته من حين لآخـر مـن عليه بيده القوية . تصوري أنني عشقته . وقررت أن يكـون لي . ولما اخبرني خيري بهذه الحقيقة المـرة . أنكرتهـا . أسقطته من حسابي . وتفرغت لهذا الولد الشقي .

كان مريباً حقاً يتنصت كثيراً وأنا ألاحظـه . بـدا لـي كضابط شرطة مدسوس في العمل للكشف عن السرقات التي حدثت وتحدث في مخازن الشركة . كنت أعمل في حسابات المخازن حيث تحدث السرقات . كان خيري قد أطـاح بـي حينما صدق كلامك دون إثبات .

طاردت فهمي حتى عرفت أين يسكن . وبالصدفة كـان يسكن في المكان الذي تقطنين فيه . وكنت قد قمت من نومك العميق واستقبلتني عند الباب . وسألتك عن فهمي . قلت لي إنه غادر في التو وقد يعود . ربمـا ذهـب ليأكـل لقمـة . وقررت آن أنتظره . وجلست إلى مقعـد متهالـك انتظـر . وكنت أنت وأهلك تسكنون في غرفتين ، وهو يسـكن فـي غرفة أخرى مجاورة ، وجدها بشق النفس منـذ شـهرين . وقلت إنه عاد من الخارج كان يعمل في لبنان . وعاد بعـد أن عز العمل هناك . وأنت ماذا تعملين ؟ .. قلت إنك تعملين ممرضة في مستشفى . واشترطت عليك المستشفى أن تعملي بصفة دائمة في وردية الليل . أما والدك فهو إسكافي يعمـل عند ناصية مسجد السيدة زينب . ووالدتك ربة بيـت . أمـا أخوك فهو يعمل ميكانيكياً . استأذنت مني لتصلي العصـر ،

فقد كاد أن يفوتك . وكانت عيناك لا تجيبان طـول الوقـت عن السبب الذي من أجله تأتي الشمس لزيارة باطن الأرض السمراء . لكنك لم تكوني تجرئين أن تسألي . بيد أنـه فـي ذلك اليوم لم يأت .

رأيته في اليوم التالي . وأخبرته أنني ذهبت إليه . رفـع حاجبيه مندهشاً . وسألني عن السبب . قلت له إننـي كنـت أريد أن يبحث لي عن خادم . قال بوقاحة : أتعتقـدين أننـي أعمل في مكتب لاستخدام الخدم . ضحكتُ وقلـت لـه : إذاً فأنت لا تعمل في ذلك المكتب . قال : كيف عرفـت أننـي أسكن في ذلك البيت ؟ .. قلت : ألا تعرف أن شئون العاملين قريبة من هنا ؟ ..

لم يكن يعرف أنني ذهبت لأغويه . ولعلـك تقـولين إن نفسي حلوة . تهفو إلى الذباب مثلما يسـعى وراء الحلـوة . ولكنك ستعرفين فيما بعد أن نفسي كانت تهفو إلـى اللذيـذ الألذ .

لقد استمر فهمي يعمل زهاء شهر فـي إدارة الحسـابات والمخازن ، ثم نُقل بعد ذلك إلى مستودع المخازن ، فـأنخلع قلبي من مكانه . شعرت كأن صدري أُنتزع مني . يبدو أنني حين أغرم برجل ، لا أتمكن من مفارقتـه . وكـان مـدير المخازن يمتدحه ويثني عليه ، لذلك أختاره ساعياً لمكتبه في مسطرد حيث تقع مخازن الشركة . وكان مـدير المخـازن يأتي كل يوم في الصباح ، ولا سيرة لديه إلا فهمي السـاعي النشيط . ودائماً ما يعاير الساعي الجديد بـه . يكشـف لـه

قذارته وإهماله وسوء خلقه . ويمتدح نظافة فهمـي وحبـه للعمل وأدبه الجم . وحينما قلت له : لم لا تعيده إلـى الإدارة ما دمت ترتاح إليه وتثني على عمله . رفض وقـال : أنـا أريده في المخازن .

وفجأة ، تم القبض على مدير المخازن متلبساً بالسـرقة . واعترف في قسم الشرطة أنه ارتكب كل السرقات السابقة . وكان فهمي يقف بعيداً عن موقف الأحداث لذلك لم يشك أحد فيه . وكان من بين الشهود على سرقته فهمي ذاته .

وتم تعيين مدير جديد للمخازن ، تسلم عمله فـي اليـوم التالي . ولما أخبرني الزملاء ذلك ، اسـتغربت أن يحـدث التعيين بين يوم وليلة . وطلبني المدير الجديد هاتفياً ، وطلب مني معاملة معينة . حملتها في زهق وذهبت إليه . لم يكـن في نيتي أن أرتبط به ، فقد كان قلبي معلقاً مع فهمي الساعي . وكنت انتظر أن ينقل من جديد من مسـطرد إلـى وسـط المدينة ، حتى أراه وأوثق علاقتي به . إذ ذهبت إلى غرفتـه في حي السيدة زينب ، حيث كنت ولازلت وقتهـا تسـكنين فأخبرتني أمك أنه ترك الحجرة . وعـدت خائبـة أفكـر أن اطلب نقلي إلى مسطرد لأكون بالقرب من حبيبي الجديد . لا تتهميني بأن قلبي كالخرشوفة يسكن الحب فيها علـى كـل ورقة منها . لا .. إن الحب السابق يموت ويحل بـدلاً منـه حب جديد . وحينما يموت هذا الحب الجديد يبحث قلبي عن حب آخر . كان حب خيري رئيس مجلس الإدارة ينبض في قلبي . قتله بيديه حينما واجهني بحقيقـة أمـري ، أننـي أم

لأطفال كثيرين وأنني ثرية .. وأنني .. تلك الكلمـات التـي واجهني بها قتلت الحب .

دخلت عليه وليس في رأسي شيء . وفتحت باب حجـرة المدير بعد طرقه . ودخلت لأجد فهمي متربعاً على عـرش المخازن . معقول أن يكون ثوابه أن ينقل من ساع إلى مدير للمخازن . قلت له : كيف تجرؤ يا فهمي على أن تجلس على كرسي المدير . قال بجرأة : أنا المدير يا دليلة هانم .

- كيف حدث ذلك ؟ ..

- تمت ترقيتي بعد أن ضبطت اللصـوص .. لصـوص مخازن الشركة . لقد أنقذت الشركة من خسارة تُقدر بالآلاف من الجنيهات . ألا أستحق أن أثاب ويكـون ثـوابي إدارة المخازن .

- لكن أنت لا تعرف القراءة والكتابة . ولا تعرف شيئاً في المخازن ؟ ..

- أتعلم يا دليلة هانم . أتعلم . هل تعلميني القراءة والكتابة وتحصلين على أتعاب كبيرة .

- أعلمك يا سيادة المدير .. أعلمك ..

فرصة أتقرب فيها من حبيب القلب . كنت مشدوهة مـن الموقف . لم يحدث في يوم من الأيام أن نُقل سـاعي مـن وظيفته إلى وظيفة مدير . كأنما تم تعيين شيخ خفراء قريـة مأمور أمن محافظة . ولما عدت إلى زملائي . كنت ذاهلة . وعرفوا السر فراحوا يرون لي الموقف بوضـوح . إن فهمي أخ صغير لخيري رئـيس مجلـس إدارة الشـركة .

اتصلت به أخته وهو يدرس في سويسرا وأخبرته عن هـذه السرقات التي تحدث في شركة الأخـوة . وجـاء متنكـراً واشتغل ساعياً دون أن يدري أخوه . وجاء تعيينه فـي إدارة حسابات المخازن بتوصية من أخته لمدير شئون العـاملين . واستطاع أن يتربع على عرش قلب مدير المخازن اللـص . ووثق فيه الرجل حتى تمكن فهمي من وضع الأصفاد في يده وهو يسجل له كل أحاديثه مع العملاء وكل توجيهاتـه لـه . واكتشف أخوه الحقيقة ، فعينه على الفور مـديراً للمخـازن وحساباتها . إنه ابن عز وليس ساعياً . وهو مثقـف مـتعلم وحاصل على شهادات لا حصر لهـا خـلال إقامتـه فـي سويسرا. والآن ماذا افعل هل أستمر في حب فهمي وهو أخو حبيبي السابق أم أن القلب سوف يتخذ موقفاً جديداً ؟ ..

فضيلة

أتعرفين لم أحاول أن أقارن بين المرأة التي كان يجالسها خيري عبد الرزاق في مطعم شبرد ، وتلـك المـرأة التـي جاءت تبحث عن فهمي في ذلك البيت الفقير في السيدة زينب . شتان بين الاثنتين . يبدو فعلاً أنك تجيدين التمثيل . فـي شبرد كنت تبدين فاتنة . أحمر شفاه لامع . وأحمـر خـدود وردي . وشعر لم يبذل فيه المصفف مجهـوداً لأنـه رائـع بطبعه . وسحنة مضاءة . أما في دارنا في حي الغلابة . فقد كنت عادية . لا تتخفين وراء شيء مبهر . لا تفتني الرجال ولا تثيرين غيرة النساء . كيف تتلونين بهذه السهولة ؟ ..

لقد استمر خيري عشيقاً لي ، وتركـك بعـد أن أخبرتـه بالحقيقة . لم يحاول أن يفتش فـي ماضـي أيـامي ، ذلـك الماضي الذي لا يعرفه أحد غيري . لقد كان أبـي إسـكافياً فقيراً . وأخي مساعد ميكانيكي مسكين . وأمي ربـة بيـت تدخل في عداد الغلابة . ولم أطق هذه الحياة . وقـررت أن أحصل على المال وأتمتع ، ولكن ليكن ذلك كله سراً . كنت في الصباح أبدو الفتاة المسكينة المصلية المتعبـدة الصـائمة البعيدة عن الفسق . وفي الليل كنـت مـن بنـات الهـوى المتسلطات المخمورات الجانحات إلى الرذيلة . وكان أهلـي لا يعرفون شيئاً عن ذلك . كانوا يعرفون أنني أعمـل فـي مستشفى بعيد عملاً ليلياً متواصلاً . وإذا تأخرت في الصباح (نتيجة جرعات الخمر الزائدة وعدم الإفاقة) أكون في هذه الحالة قد أخرتني عملية جراحية استغرقت زمناً ، وهو مـا يسمي في لغة المستشفيات حالة طوارئ .

كنت أعود من العمل ، وأنام حتى الرابعة . توقظني أمي لصلاة الظهر ثم أعود من جديد إلى النوم من جديـد حتـى يحين وقت العصر . وحينما يحين وقـت الغـروب أتـرك حجرتينا وأمضي إلى شقتي ، وأغير ثيابي وأتذوق وأتزين ، وأذهب بعد ذلك إلى حياة الليل . لا أظن أن أحداً يعرفني من حياة الصباح يمكن أن التقي به في المساء . لم أكن لأجـرؤ على ترك حياتي مع أهلي . كان أبي صعيدياً من المتمسكين بالشرف والأخلاق القديمة . وتشبع أخـي بهـذه المفـاهيم وارتضى بقناعة بما يصل إليه من رزق . وإذا هربت منهما

اندمجت في حياة الليل ، لطارداني حتـى يعرفـا مكـاني ، ويشربا من دمي الملوث ، ويطهرا العائلة من الرجس الـذي ألم بها . أما إذا بقيت وادعيت أنني ملاك رحمـة ، فسـوف يشعران بالسعادة والهناء . ولو أنهما لم يحاولا أن يتقصـيا ورائي أحوالي ، ويعرفا مكان عملي ، فقد كان كـل منهمـا مشغولاً في عمله كانت الثقة في بنـت الصـعيدي متناهيـة خاصة أنني كنت أستحم كل صباح ، وأتجرد من الـروائح والعطور ، وأمضمض فمي حتى تختفي رائحـة السـجائر والخمر . ، وأرتدي ثيابي الحقيرة ، وأعود من جديـد إلـى حي السيدة زينب ، لأنام في الحجرة الخاليـة مـن الهـواء المنعش .

وجدت المال يتدفق في يدي بالفعـل ، لكـن شـعرت أن حياتي مبتذلة . لذلك قررت أن اقتصر على رجل واحد مـن أصحاب الأعمال ، ابتزه واستسلم له مقابل ذلك الابتزاز .ولا أعرف أحداً غيره ، حتى إذا ما أهملني أو أهملتـه ، أعـود أبحث عن آخر .بشرط أن يمتلئ رصيدي المصرفي بالمال ، وأتمكن من شراء سيارة خاصة وأن امتلك مـا أحـب مـن عقارات . ولم اكن قادرة على أن أفيء ممـا املـك علـى أسرتي . لأن السؤال المؤكد في هذه الحالة هو من أين لـك هذا ؟ .. إذا عرفوا قتلوني . ولا أعتقد أنهم سوف يتغاضون عن ذلك السؤال أبـداً . والقتـل آت لا محالـة فـي حالـة الاعتراف بالفسق .

ويبدو أن بسبب الفقر المدقع الذي كنا نعيشـه . وبسـبب إخفاء جمالي عن الخلق ، فقد تركت شعري المجعد مسترسلاً فظهر كخنفساء كبيرة فوق رأس إنسان . وكنت لا أتـزين . وارتدي ثيابي القديمة . ولا يتمكن أبي الإسكافي من تجديدها . من أجل ذلك كله لم يفكر أحد أن يتقدم لخطبتي أو الاقتران بي . هل سيضم فقره إلى فقري ؟ .. غير أن المفاجأة حدثت حينما جاء شلبي يطلب يدي . يبدو أنه أكتشـف أن وراء هذه المرأة فاتنة متخفية ، فتقدم لأبي في محله - مكان فـي الشارع بالقرب من المسجد - وطلب يد ابنته فضيلة .

نظر أبي إلى الرجل الماثل أمامه . واستغرب أن يطلـب يد ابنة رجل فقير . وتأمله ملياً فوجده حسن المظهر ونظيف الثياب ، ماذا يعمل ؟ .. يعمل كاتباً فـي إحـدى المصـالح الحكومية .

قال أبي : أهلاً بك .

جاء أبي في المساء وقال لأمي :

- نظفي المكان فهناك عريس لأبنتنا سوف يزورنا اليوم .

ولم أكن موجودة بطبيعة الحال ، إذ كنـت أغـادر عنـد الغروب ، ولا أعود إلا في الصباح . قالت أمي :

- ألا ينبغي أن تكون فضيلة موجودة حتى يراها ؟ ...

خبط رأسه وقال :

- نسيت .. ثم أردف : نقول له تعال غداً .. وقولي لهـا ألا تذهب إلى العمل .

فوجئت بأمي تقول لي : لا تذهبي إلى المستشفي غـداً . احصلي على إجازة . سألتها عن السبب . قالـت : هنـاك عريس سوف يأتي لخطبتك . أنقبض قلبي كأنه يحذرني من الخطر .

صرخت قائلة : أمعقول أن المستشفى سوف يوافق علـى إجازة بسهولة . إنهم حتى يحرموننا من الراحات الأسبوعية . يعوضوننا بالمال . فكيف تظنين أنهم سوف يوافقون علـى إجازة عارضة . قالت أمي مستفسرة : ومـا العمـل ؟ .. أجبت : انتظري حتى أحدد لك الوقت وتبلغيه به .

ماذا أعمل يا ربي ؟ .. هل أرضى برجل فقيـر وأتـوب واصبح امرأة صالحة أم أرفضه ؟ .. ومـاذا سـأقول عـن أسباب رفضي إياه ؟ .. أقول إنه فقير ولا يجوز أن يجتمع فقيران معاً ، لأن الحصيلة سوف تكون شقاء . وهل انتظـر حتى يتقدم ثري ؟ ... وأين هو الذي يرضى بفتاة من الرعاع ؟ .. وماذا يحدث لو أصر أبي على الزواج ، باعتباره ولـي أمري ، ولا يجوز في عرف الصعايدة أن تختلف البنت فـي الرأي عن رأي أبيها . ولا يجوز لها أن تخرج عن طوعه ، وإلا كان جزاؤها الذبح ؟ ..

أسئلة كثيرة لم أتمكن من الإجابـة عليهـا . ومـأزق لا أستطيع الإفلات منه . لقد اكتشفت من الحديث مع أمي ، أن أبي مصر على أن أقترن بذلك الرجل .. وأن لا فكاك مـن ذلك . شعرت أنني سقطت في مصيدة فأر ولن أتمكـن مـن الفرار منها .

ولم لا أقبله ؟ .. وإذا اكتشف أنني لست عذراء ، وأخبـر أبي ، فكيف سيتصرف أبي ؟ .. بل كيف سيتصـرف هـو نفسه إزاء هذا الوضع المشين ؟ .. هل يقبل الاستمرار معي ويغفر لي أم يذبحني هو الآخر أم يطلقني وأعود إلى بيـت أبي مجللة بالعار ؟ ..

لا سبيل أمامي إلا أن أقبل الخطبة ، ثم أدعي بعد ذلك أنه بخيل أو عليل أو فيه عيوب لن تتمكن امرأة مثلي من تحملها ويتم فسخ الخطبة . أو أعقد له المشاكل الخاصـة بالشـبكة والمهر والشقة والأثاث ويهرب من تلقاء نفسه . ووجدت أن ذلك هو الحل . وطلبت من أمي أن تحدد ميعاداً للقائه ، فقـد تمكنت أخيراً من أن أستأذن ساعتين من إدارة المستشفى .

دليلة

على ذكر الخطوبة والزواج . أتعرفين ؟ .. لقد زوجنـي أبي في سن صغيرة حتى يتخاص منى . كان رجلاً لاهياً . ثرياً يلعب بالمال ، والمال من يده لا ينتهي . يسكر ويعربـد ويترنح ويعاشر النساء من مختلف الألوان . وكنت أمثل عبئاً عليه ، رغم أن هناك دادة لي . قامت مقام أمي . كان تعتني بي وتعلمني واجبات الأنثى وترشدني إلى طريق الصواب . هي التي غرزت في قلبي الطيبة والبساطة والسـذاجة فـي بعض الأحيان . ولو أني كنت في الواقـع ثـائرة متمـردة غاضبة . لكن الطيبة في قلبي تجعل الثورة تخفت بعد دقائق من إعلانها . والتمرد كانت البساطة تصب عليه ماء مثلجـاً فينكمش . والغضب كانت السذاجة تطيح به هباء منثـوراً .

أراد أبي أن يتخلص مني ربما حتـى لا أرى مباذلـه . ولا يسقط في نظري . واستمررت مقدرة إياه واعتبـاره مثلـي الأعلى ، فزوجني من رجل كبير فـي السـن . لا أعـرف أسباب أن يزوجني من ذلك الرجل الكبير وأنا لا زلت فـي سن السادسة عشرة . هل تراهنا على شـيء فخسـر أبـي الرهان وكان تزويجي إياه المقابل الذي يتفادى به الخسارة أو يقايض به على الرهان ؟ .. ربما . كـان الأمـر غامضـاً بالنسبة لي . واستمر حتى اليوم سبب زواجي في سن مبكرة أمراً مجهولاً . تركت المدرسة على أثر ذلك . وأصـبحت ربة بيت مع رجل سقيم . لم أقبل مداعباته الفجة . ولم أشعر بأي حب نحوه . وسخطتُ على أبي سخطاً شديداً .

في أول ليلة اكتشفت أنه يعاني من العجز . وأنه أراد أن يسترد شبابه مع طفلة . غير أن الطفلة كانت لوح ثلـج زاده عجزا . بيد أنه لجأ إلى الأطباء لعلاجه ونجح العلاج . ولما طلبني دهشت أنه استرد عافيته . لكن المتعـة معـه كانـت عارضة وقليلة . وكان يتركني طوال اليوم ولا يعود إلا في المساء . كان رجل أعمال من الرجال المرموقين . وطلبـت أن أواجه الفراغ بالعودة إلى الدراسة ، فرفض ، لذلك قررت أن أقلب حياته جحيماً . لا غذاء ولا عشاء ولا إفطار . وإذا ترك ملابسه لا تُعلق . وإذا ترك فراشه لا يسـوى . ولمـا عاتبني على ذلك . قلت له : أنا لست خادمة . وأدركت أنـه بخيل لأنه لا يستخدم أحداً . يريد أن يوفر مصاريف الخادم . وكان إذا ترك مصروف البيت ، رفضته لأنه لا يكفي . ولما

قال لي : هذه ليست عيشة . قلت : من أجبرك عليهـا ؟ .. طلقني . وطلقني بالفعل . واتخذت ورقة الطلاق هـذه فيمـا بعد مسوغاً لأن أكون امرأة مطلقة . وتزوجت أكثر من رجل بهذا المستند ، ولم يحدث من ناحيتهم أي طلاق أبداً .. كنت أترك الرجل أو بالأحرى الـزوج فـي أوج سـعادته ، ولا يعرف لي مكاناً بعد ذلك ، وأتزوج الآخر مؤكدة أنني امرأة مطلقة . وها هي قسيمة طلاقي من العجوز الغيور . يمكـن أن تقولي إن جريمة تعدد الأزواج كانت تلاحقني وأنا أهرب منها فلا يطيلني الاتهام ولا يتمكن زوج سابق من رؤيتي .. وكيف يتسنى للمأذون أن يعرف أن المرأة تزوجـت وعلـى ذمة رجل وهى تقدم له وثيقة طلاق ؟ ..

المهم أنني عدت إلى بيت أبي . وحدث صراع بيني وبينه ، بسبب أنني حامل . كان يريد أن يعطي الولد لأبيه بمجـرد أن يولد ، لأنه لا يطيق تربية الأولاد . وكنت أصر أن أبقي أباه وأمه وكل شيء في الدنيا له . يقول لي إنـه لا يطيـق تربية الأولاد . أقول له : وكيف إذاً رباني ؟ .. يقول لي إن الولد في النهاية لأبيه وليس لأمه . أقول إن لـيس لـه أب . أبوه مات في نظري وإنه لو أخذه سيعذبه لأنه بخيل ونتن . استمر الأخذ والجذب في الحديث طوال فترة الحمل . خشيت أن يأخذ الولد عنوة مني ويسلمه لأبيه . تمنيت أن يموت ولا يحدث ذلك . بل وصل الأمر به أن طلب بالهـاتف زوجـي السابق وقال له إن له ابناً على وشك الولادة ، فرح الرجـل فرحة كبيرة . وطلب مني أن أعود إلى البيت معززة مكرمة

ما دمت سوف اجاب له ولي العهد ، لكني رفضت لأنه بخيل وقذر ولا نظافة في أخلاقه ولا نظام في حياته . قال لـي إن كل ثروته تحت أمره . كل ما علي هو أن أعود . قلت له إنني أنقذت نفسي من الجحيم فكيف أعود مرة أخرى . قـال ما هو الجحيم ؟ .. قلت جحيم الوحدة والتوحد . ألـم تكـن تتركني بالساعات كل يوم وحيدة بين أربع جدران في قصر طويل وعريض ليس فيه إنسان غيري . جحيم البخل ألم تكن تتركني بلا مال زهاء أيام ، ولولا أنني أذهب إلى بيت أبـي وأغرف من خزانته دون أن يدري لكنت تضورت جوعـاً . أنسيت المعاملة السيئة ؟ .. قال لي أعاهـدك أن كـل ذلـك سوف يزول . وسنبدأ عهداً جديداً . عدت دون مشورة أبي . ويا ليتني لم أعد . رجعت ريما إلى عاداتها القديمة . وعاد من جديد إلى السهر . يبدو أنه كان يلتقي بالنساء الأخريـات يجدد معهن شبابه الضائع بدلاً من لوح الثلج الذي ينتظره في البيت . كيف لا أكون لوح ثلج وهو العجـوز الأشـيب ذو الوجه الكالح والفم الكريه ؟ .. كيف لا أكون لوح ثلج وأنـا أتحايل على أبي أن يمدني بالمعونة من أجل أن أعـيش وأن ينمو ابني ؟ ..

تركت له البيت مرة أخرى ، وعدت هذه المرة إلى قصر أبي اللاهي .. ذلك القصر الذي شاهدته في شارع الأهـرام بالجيزة .. هناك أنجبت ابني الأول . وكان يوم مولده يـوم وفاة أبي . ولم نستطع أن نفرح لمولده ولم أستطع أن أحزن لوفاة والدي . لم يبدد الرجل ثروته علـى الخمـر والنسـاء

والميسر . كان حريصاً في عدم تبديد الثروة لكنه لـم يكـن حريصاً في المحافظة على صحته . تهرأ كبده بسبب الخمـر التي يحتسيها يومياً كأنها ماء . كان لا يفتأ يتجرع أكثر مـن كأس في الصباح .. أو أكثر من كأس عند الظهيرة . ويعبئ معدته بكؤوس في المساء بين النساء . لم يكن يفتـرق عـن زوجي ولو أن الأول يجهر بالفحشاء . والثاني يخفيها . وقبل أن يموت قال لي كلمة عذبتني واستمرت تعذبني ليل نهار . أمك ما تزال على قيد الحياة . لقد خطفتك منها . حـاولي أن تبحثي عنها لتشعري بحنان الأم . سألته وأنا أبكـي : كيـف تفعل ذلك ؟ .. كيف تحرمني من أمي ؟ .. أيـن يمكـن أن أجدها ؟ .. قال : لا أدري .

مات قبل أن ينطق لي بعنوانها . كان يريد أن يلقي بـي في دوامة ، لا أعرف كيف أخرج منها . شغلني عنها وضع الطفل عن كل شيء مثل إجراءات الدفن والتوديع منعتني من معرفة أين تقيم أمي . وجاء عمي ليكون وصياً علي بعد وفاة أبي . كان مختلفا عنه اختلافاً بيناً . كـان الرجـل يصـلي ويصوم ويزكي . ويعرف الحلال من الحـرام . لا يرضـى أبداً أن يقتنص شيئاً من مال اليتيم . وتركني أعـيش فـي قصر والدي معززة مكرمة مع دادتي أمينـة . تلـك التـي لازمتني كأمي منذ مولدي وتعذبت معي وتنعمـت معـي . سألتها عن المكان الذي أجد فيه أمي ؟ .. أجابـت أنهـا لا تعرف شيئاً عن الماضي ، لأنها قامت على رعـايتي بعـد مولدي وانفصال أبي عن أمي ، أو اختطافي إيـاي منهـا .

سألتها ألم تتردد أمي على القصر لتشاهدني . أجابت بـأن لا أحد كان يدخل القصر أو يخرج منه حتى العم الوصي علـي الآن لم يكن يتردد على القصر ، كان منفصلاً عن أخيـه . كان أخوه يسير في طريق لا عودة منه ، أما هو فكان يسير في الطريق المستقيم ، يعرف بدايته ونهايته . ولمـا سـألت عمي عن أمي ؟ .. أجاب بأنه كان منفصلاً عن أبي بعد أن تم تقسيم التركة بينهما . ويبدو أنه تزوج أمي سراً وخطفني منها ولم يكنا يعيشان في ذلك القصر . كانا يعيشان في شقة استأجرها ، لذلك فإن أمي - من المؤكد - لا تعرف قصـر شارع الأهرام .

لما عرف زوجي - وكان قد ردني ووثيقة طلاقـي فـي جيبي - أنني أنجبت له ولداً سميته عاطف . جاء يحاول أن يعيد المياه إلى مجاريها فطردته . وجلست يومها أقارن بـين سلوكي وسلوك والدي . هو تزوج من امرأة خطـف منهـا طفلتها . وأنا تزوجت من رجل خطفت منه طفله . أكانت أمي سيئة السلوك فهرب منها أبي . أم أن الخمر هيأت لـه أنها سيئة السلوك فأراد معاقبتها بحرمانها من الطفلة فخطفها واسكنها في مكان لا تعلم عنه شيئاً .

لم يلبث زوجي طويلاً في الحياة ، ومات . فآلـت إلـي ثروته أنا بصفتي زوجه وأبني بصفة الوارث لباقي الثـروة وأنا الوصية عليه . بل إن عمي لم يشاركني في ثروة أبي . تركها لي كلها لأني أعول ولداً وكان عمي يستحق نصـفها شرعاً .

وقررت أن أدرس من جديد وأدخل الجامعة وأربي ابني . وفي الجامعة التقيت بفارس . كان فارساً من فرسان الكلمة . يخطب في الطلبة ويحركهم ويدفعهم إلى مطالبـة الحكومـة بمحاكمة رجال النكسة . وغضب غضباً شديداً حينما تمـت المحاكمة لدمى لا صلة لهم بالنكسة في رأيه . كان يريـد أن يحاكم عبد الناصر نفسه . وأفلت فارس من الشرطة ، وهى تحاول القبض عليه . استطعت أن ادخله في سيارتي وأمضي به إلى شقة خاصة بي في أحد الأبراج التي تركها أبي علـى النيل ، وكان يتخذها وكراً له ، فاتخذتها بالتالي وكـراً لـي لقربها من الجامعة . ورفض أن يعيش معي دون عقد زواج ، فلم أمانع . كان زوجي لا يزال على قيـد الحيـاة ، ولـم يعرف أنني تزوجت من فارس ، قدمت للمأذون وثيقة طلاقي . وعرف فارس أنني ثيب ، وأنني مطلقـة قبـل أن يـدخل بي .

أختفي فارس في شقتي على النيل ، حتى هدأت الضـجة وعاد إلى دراسته كأن شيئاً لم يكن . ولم يكن في نية الشرطة أن تحاكمه بل أن تعتقله حتى تهدأ الزوبعة . واصـبح بعـد هدوء العاصفة لا فائدة من اعتقاله ، فقـد رضـخ الشـعب للأحكام التي صدرت في حق المسئولين عن النكسة . ولـم يعد يثور كأنه وجد أن الثورة لا فائدة منهـا . وأن القـوي يمكن أن يمحق الضعيف . وتضيع الأنفس بهـذا المحـق ، ففضل البقاء على الأنفس ، بدلاً مـن الضـياع أو المـوت وتخاف سنة كاملة عن الدراسة .

ولم يعرف فارس أن لي ولداً . ولم يعرف أن لي قصراً . وأن هناك أموالاً طائلة ترقد تحت قدمي . أدرك فقط أنني سيدة مقتدرة مالياً . ولي سيارة أقودها بنفسي . ولي شقة . ولي مصدر مالي لا يعرف من أين أستمده . بل لم يصل إلى علمه أن يكون ذلك البرج القابعة فيه شقتي كان يدخل في ممتلكاتي .

لا تقولي لي لم تركته ؟ ! .. إنه الحمل . لقد حدث في نهاية امتحان البكالوريوس بكلية التجارة أن كانت الأيام الأخيرة من حملي . وما كدت أسلم الورقة الأخيرة للإجابة حتى داهمني المخاض . ونقلت إلى مستشفى القصر العيني وأنا أعاني وأصرخ وأتألم بينما فارس كان لا يزال يؤدي امتحانه . الحقيقة أنني غادرته قبل أن يظهر حملي . وكنت أتجنبه في الكلية . ولم يرني مرة واحدة وأنا حامل . بل كنت أؤدي الامتحان للسنة النهائية في لجنة وفي يوم يختلف عن يومه ولجنته لأنه كان قد تخلف سنة عني عطلته ثوريته عن تحصيل العلم فاختلفنا في مواعيد الامتحانات . . ولعله كان عازماً على أن يفتش عني تفتيشاً دقيقاً عقب انتهاء الامتحان في السنة الثالثة . فقد جاء يوماً إلى الشقة وطرق الباب لأن المفتاح لم يكن صالحاً للفتح ولم يجبه أحد . وسأل البواب عني فأجاب بأنني تركت الشقة ، وكانت الشقة مستأجرة مفروشة من قبلي وأن الشقة لما ردت لأصحابها غيروا قفل الشقة ، وعاد يومها خائباً ، كما قال لي البواب فيما بعد . . وكانت أقواله كلها هي أقوالي التي أمليتها عليه . ولما تمت

الولادة عدت يومها إلى قصري بالهرم أضم بنت فارس إلى ابن البخيل . اصبح عاطف أخا لعفاف ولا يدريان أنهما من أبوين مختلفين ، ولو أن أمهما واحدة . المهم أنني تزوجـت فارس وأنا لا زلت على ذمة البخيل ولم يكن قد حدث له لقاء رب كريم بعد .

فضيلة

عجيبة هذه الحياة . أنت كنت تنجبين الأطفـال ، ورغـم ذلك تتزوجين زواجاً رسمياً . أما أنا فكنت محرومة مـنهم ، فتماديت في غيي ، لقد ذهبت إلى أحد الأطباء في ذات يـوم من الأيام ، لأعرف أسباب أنني لا أحمل من هؤلاء الرجال الذين يتصلون بي ، رغم أنني لا استعمل علاجات واقيـة . وكشف الطبيب بدقة . ثم تركني ارتدي ملابسي وأعود إليـه عند مكتبه . وعرفت منه أن رحمي طفيلي ، ولا سبيل إلـى أن احمل طفلاً . بكيت يومها . ولا أعرف لم بكيت . ربمـا لأن ذلك الوضع سوف يجعلني استمر في مسـاوئي . وأنـا أريد أن أنتشل نفسي من هذا المستنقع . وتسأليني لم بكيت . لعل الخوف من الحمل كان من الممكـن أن يمنعنـي مـن التمادي في الرذيلة . ولما كان استمراري في واديها الخرب رجس كبير ، لذلك بكيت على نفسي وعلى حالي لأني لـن أجد حجة للهروب من ذلك الوادي الخراب . بكيت في تلـك الشقة التي استأجرتها في المنيل ، تلك التي كنت استقبل فيها عشاقي . وفي ذلك الحين اقتصرت على عشيق واحد .

لقد غير هذا الطبيب طريقة الفساد التي أتبعها . كنت لكل رجل مادام يدفع الثمن . فطلب مني أن أقتصر عليه . وأنـه سيعوضني عن ما يدفعه كل الرجال الراغبين في متعتـي . في ذلك الوقت قبلت لأن قليلاً من الدنس أكثـر خيـراً مـن كثيرهم . لم يكن متزوجاً كما قد يتبادر إلى ذهنـك ويخفـي علاقاته مع امرأة عن الناس . كان أعزب ، ولكنه يكـره أن يرتبط بالمرأة رباطاً شرعياً . أقول لك الحقيقة هـو الـذي أغدق علي . هو الذي اشترى لي شقة باسمي ، وتركت شقة الإيجار . وهو الذي اشترى لي سيارة ، ولم أجرؤ أن أدخل بها الحارة ، حتى لا يصاب أهلي بالمرارة . حينما يعرفـون أن ابنتهم انحرفت .وتتفجر في قلـوبهم بـراكين الغضـب فيقدمون على عمل ينأى عن الخير ويندفع إلى الشر . وهـو الذي اشتري لي ملابسي الفاخرة ، تلك التي كنـت اتركهـا لحظة أن أفكر في أن أعود إلى الحق الحقيـر فـي الحـارة الضيقة القذرة . لا أدري ما هو السبب الذي من أجله بـذل ذلك الطبيب هذا البذل وأجزل العطاء . ولم كان محجماً عن الزواج . إن ذلك من الأسرار الشخصية التي يحـتفظ بهـا الإنسان ولا يتمكن من البوح بها لأحد . لم يكن مستهتراً ولم يكن فاسقاً مما جعل الاندهاش ناحيته يوغل في قلبـي وفـي أعماقي دون أن أحاول أن أعرف لسؤالي جواباً . وهاأنـذا أروي لك بعض الأسرار الخاصة بـي ، ولا أتوقـف عـن سردها عليك . أنت تعرفين كم كانت هذه الأسرار عبئاً على صدري ، أشعر الآن وأنا أذيعها أنني أزيح هذا العبء ، وأن

قلبي يرتاح . يبدو أن إذاعة الأسرار فيها تخفيف من العبء . لكن سر عدم زواج ذلك الطبيب لم يكن يمثل عبئاً عليه فلم يبح به .

نسيت أن أقول لك ما كان لي مع شلبي ، ذلـك الرجـل الذي تقدم لخطبتي . حينما اجتمعنا به أنا وأبي وأمي وأخي . ناقشته في مسيرة حياتنا بعد الزواج . وكـان أبـي يسـتمع محاولاً أن يثنيني بعينيه عن المواصلة ، وأنا لا أهتم . قلـت له :

- أين سنعيش ؟ ..
- إن لي بيتاً - شقة - أسكن فيها مع أمي .
- ولم لا تكون لنا شقة مستقلة ؟ ..
- لأن قدرتي المالية لا تكفي .
- إذاً أنت تريدني أن أكون خادماً لأمك ؟ ..
- حاشا أن يخطر ذلك بذهني .
- وهل سيكون الأثاث قديماً أم جديداً ؟ ..
- لنبدأ بحجرة نوم .. ثم نشتري بعد ذلك كل الأشياء عاماً بعد آخر . حجرة استقبال . ثم حجرة الطعام .. وما تريدين .
- إذاً فأنت لا تنوي أن تدفع مهراً .
- لقد أفهمني والدك أنه غير قادر على تجهيز أي أثاث .
- ولا تنوي أن تشتري لي شبكة .
- نقرأ الفاتحة الآن .. وبعد شهور ثلاثة .. تتم الخطبة وأتمكن أن أشتري لك شبكة محترمة .

- وبعد سنة نكتب الكتاب .. وتشتري لي حجرة النوم .
- نعم .. نعم .. كأنك تقرئين أفكاري .
التفت إلى أبي وسألته :
- ماذا تقول في ذلك يا أبي ؟
فوجئت بأبي يقول لي :
- على بركة الله .

لكنها خطبة ولدت ميتة ، فلم أقر الفاتحة معهم كما ظـن أبواي وأخي . بل لم أحدد ميعاد الشبكة بعد ثلاثة شـهور . إنما أعلمت أبي أنني لا انوي أن أُخطب للرجل لأنه فقيـر . وأنا فقيرة . بل مرتبي عشرون جنيها ومرتبه ثلاثـة عشـر جنيها . فأنا أكثر منه مالاً ، فهل سأصرف عليه أم سيصرف علي ؟ .

سألني باقتضاب : أهو لعب عيال .

قلت : إنه هروب من الفقر والقحط يا أبي .

ولما عرف شلبي الخبر ، صمم على أن يعرف أسـراري الخفية . ظن أن في الأمر طبيباً يغـازلني فـي المستشـفى وأهواه وأرفضه من أجل ذلك الطبيب . هكذا قال لأمي حينما قالت له إن البنت لا تريدك . كانت لديه الفرصة سـانحة أن يراقبني ، لأنه يعمل فـي وزارة مـن وزارات الخـدمات ، وعمله لا يتعدى الثانية بعد الظهر ، ويكـون متفرغـاً لأن يتتبعني بهمة .عرف أنني أخرج لعملي فـي تمـام السـاعة الخامسة بعد الظهر . ووقف عند ناصية الحـارة وتـوارى حينما رآني خلف عامود من عواميد النـور فـي الشـارع

الرئيس المتفرعة منه الحارة . وطفق يتبعني . لكن أذهلتـه المفاجأة إذ ناديت على سيارة أجرة ، وركبتها إلـى شـقتي المملوكة لي بالدقي . لم يكن في مقدرته أن يـدفع لسـيارة أجرة قيمة المسافة بين السيدة زينب والدقي . وعـرف فـي اليوم الثاني أن هناك ضياعاً لوقته إذا ما استمر يترصدني . وأن الفتاة على حق إذ رفضته ، فهي أكثر منه مالاً . وخمن أنني أتقاضى مرتباً أكثر مما أعلنته . وأدس الباقي في جيبي، وأعطي أبي خمسة عشر جنيهاً فقـط . هكـذا قابـل أمـي بالصدفة في السوق ، وهمس لها بما استنتجه . وجاءت أمي تسألني عن قيمة مرتبي الحقيقية . وشكّكت فيما أقول وكـان برهانها سيارات الأجرة التي أركبها . قلت لها إنني لا أدفـع قيمتها إنما يدفعها المستشفي عني ، فـالمفروض أن تكـون هناك سيارة تأخذني وسيارة تقلني إلى بيتـي . ولمـا كـان المستشفى غير قادر على ذلك ، فهو يسمح لـي أن أركـب سيارة أجرة يحاسبها المحاسب في المستشفى على قيمتهـا . وعادة ما أعود بسيارة عمومية حتى أوفر ثمن سيارة الأجرة . وأصرف الفرق على غذائي الغالي الثمن في المستشفي .

كنت أنتظر ذلك الطبيب الذي أصبحت عشيقته حتى يأتي من عيادته . وكان يغيب فيها حتى الساعة الحادية عشرة فقد كان طبيب أمراض نساء . وكان يجري عمليـات إجهـاض للنساء اللواتي يحملن سفاحاً أو اللاتي يردن أن يتخلصن من حملهن ، لذلك كان صيته ذائعاً . وكان تهالك النسـاء علـى عيادته يدر عليه مالاً كثيراً . ولم يكن يجد مصباً لهذا المـال

غير جيبي . لم يكن له أمل في مستقبل . ولا رغبة له فـي الزواج وإنجاب الأطفال من أخرى . ولا أمل في أن يـدخر لمستقبله ، فقد كانت وظيفته الصباحية فـي وزارة الصـحة سوف تتوج أعماله بمعاش كبير . وكـان نباتيـاً لا يقـرب اللحوم . ولم تكن له هواية معينة . ولا متعـة فـي الأكـل والشرب أو التنزه وكثيراً ما نهاني عن تدخين السجائر لأنها تضر بالصحة . كانت متعته الوحيدة أن يجد صدراً حنوناً في نهاية اليوم . وكنت أنا ذلك الصدر الحنون . تبـت عـن البغاء ، وفضلت أن أكون بين يديه ، وليس تحت قدميه .

كنت أخرج بسيارتي من حين لآخر أشاهد المعروضـات في الشوارع أو أحتسي كوباً من العصير فـي جروبـي أو الأمريكيين أو تسيبس . وأتجول وأرفـض أي مغـازلات أو معاكسات . صرت لا أسمح لأحد أن يمسـني غيـر ذلـك الطبيب .

وفي أحد الأيام ، توقفت سيارتي فـي الشـارع ، كأنهـا أصيبت بصاعقة . وساعدني أولاد الحلال في تجنيبها إلـى يمين الشارع . وأشار أحدهم إلى محطة بنزين فـي شـارع عبد الخالق ثروت بها ورشة لإصلاح السيارات . ودخلـت المحطة والجميع يتأملون هذه الفاتنة . إنها امرأة تبدو غنية ، ملابسها فاخرة ، تضع على عينيها نظارة غالية الثمن تحجب بعض ملامحها ، وحقيبتها جلدية بها حافظة نقـود مدججـة بالمال . وطلبت من مدير المحطة إصلاح السيارة . تعطلت فجأة ولا أمل في تحريكها . وأرسل إلي الميكـانيكي ليقـوم

بإصلاحها . تصوري من يكون الميكانيكي . إنه أخي يوسف ابن أمي وأبي ، ذلك الذي تجري في عروقه دماء الصـعيد الزرقاء . ويحتد دفاعاً عن الشـرف والأمانـة والكرامـة . شاربه يقف عليه الصقر ولا يشذبه . وساعده يحطم مائة أو ألف رجل . وغيرت على الفور من صوتي . وقلـت لـه بكبرياء وعنجهية : اصلح هذه السيارة يا اسطي .. فأنا على موعد هام .

لم اهتم بتأمله إياي ، ولو أن قلبي كان يرتجـف . هـل سوف يعرف أنني أخته ؟ .. وهل شكلي الحالي يتفق وشكل فضيلة الممرضة صفراء اللون الخجول ؟ ..

دليلة

حدثت لي مثل هذه الحادثة . حينما واجهت فـارس فـي الطريق بعد أن هجرته . لم يكن فارس يعرف أنني حملـت منه ، ولا أني أنجبت بنتاً . وناداني : دليلة .. دليلة .. لكني استجمعت كل شجاعتي ومضيت في طريقي . غير أنه شـد يدي وسط الصفوف أمام سينما ريفولي . وقال لي : دليلـة . التفت إليه في منتهى البرود وقلت له : لست دليلة . من أنت ؟ .. قال كأنما لم يسمع ما أقول : أنا زوجك يا دليلة . قلـت له : يبدو أنك غلطان ليس اسمي دليلة . وحاول النـاس أن يتجمعوا حولي ليستطلعوا الأمر ، غير أنه أعتذر ومشـى . وهو لا يصدق أنني لست دليلة .لا تسليني لم لم أعـد إليـه وأنا أحبه وأنجبت منه بنتاً ، فقد كان هناك شيء في داخلـي يمنعني . عرفته فيما بعد .. بعد أن تزوجت اثنين آخرين من

الرجال دون أن يتم تطليقي من واحد منهما . أنجبت منهما ، وتركتهما مثلما تركت فارساً .

كنت أمضي وقتي في البداية - مع ولدي عاطف وعفاف - في قصر والدي . وأشرف في نفس الوقت على الممتلكات التي تركها لي أبي . والممتلكات التي تركها لنا والد عاطف . وكانت عفاف - بنتي - تسأل : ألم يترك لي والدي شـيئاً مثل عاطف ؟ .. كنت أتجاهل سؤالها وأغير مجرى الحديث وكان من صفاتها أن تنسى ما تسأله كأنما كانت تسـأل ولا تنتظر إجابة . وحينما لا تسمع إجابة لا تهتم .

غير أن حصولي على بكالوريوس التجارة ، جعلني أسعى إلى العمل . وعملت في البداية في إحـدى الشـركات فـي القاهرة . وظهرت - كما هي عادتي - بمظهـر المحاسـبة الفقيرة التي لا تملك من حطام الدنيا شيئاً . وليس لدي سيارة . واسكن في بولاق الدكرور . واشتريت شقة هنـاك حتـى يكون ذلك مقري الدائم بالنسبة للشـركة . ولا تسـألين لـم أتصرف على هذا المنوال كانت هناك رغبة دفينة في نفسي أن أتخفي حتى إذا تعرف بي أحد الرجال يحبني لشخصي لا لأموالي . ولم يفكر أحد أن يتتبعني إلى هناك . مثلما حـاول فارس أن يقتفي أثري في ذلك اليوم الذي التقيت بـه فيـه . ويبدو أنه صدق أنني لست دليلة لأني لم أركب سيارتي بـل ركبت سيارة أجرة تاهت من عينيه وسط القاهرة وعادت من جديد عند موقف المحكمة القريب مـن سـينما ريفـولي . تسألينني ولم لم أُؤسس شركة أقول إنني فكرت أن اعمل أولاً

واكتسب خبرة ثم أبدأ في تكوين شركة من أموالي الطائلـة لكن بعد أن أكتسب الخبرة اللازمة .

حاصرني المعجبون في الشركة . واحد منهم كان يعمـل في العلاقات العامة . والآخر كان معي في قسم الحسابات . والثالث كان يعمل مهندساً للإنشاءات في الشركة . ولفظـت الأولين وبدأت انصب شباكي على الأخير . كان يتميز بأنـه يظهر ما لا يبطن . يدعي أنه لا يهتم بي وهو متعلـق بـي تماماً . وكان مثل هذا الشخص يثير إعجابي . وتمكنت منه . ودخل المصيدة بسهولة . وطلب مني ألا أعمل . قاومت في البداية ، ذلك لأن العمل يملأ الفراغ الذي أعـيش فيـه فـي الصباح حتى العصر . كان ولدي يملآن هـذا الفـراغ فـي الصباح غير أنهما بدآ يدخلان الحضانة تمهيـداً لالتحاقهمـا بالدراسة الابتدائية . غضبت في البداية ثم لم استطع . كانت حياتي بلا رجل تعتبر أرضاً جدباء لا زرع فيها تتشوق إلى الزرع . وإذا ما دخل الرجل فيها تحولت إلى أرض خصـبة بها زهور فواحة وخضرة نضرة وثمار يانعة . قبلت لكـن بشروط أهمها المهر ومؤخر الصداق والشبكة . وشعرت أن المهندس القدير عاجز عن قبول الشروط . وأضـفت إليهـا الشقة . وابتسم ابتسامة عريضة فقد ترك والده شقة واسـعة في حي السكاكيني . قبلت بعد أن دبر الشبكة والمهر . ولـم يعرف إلا أسمي ولقبي فقط وسكني في شقة بالإيجار ولـيس بالتمليك في بولاق الدكرور . تركتها لما تزوجته والحقيقـة أنني أجرتها للاستفادة من إيجارها . ولم يعرف أن لي سيارة

وأن لدي ممتلكات تدر دخلاً وإيراداً عاليين . وعرف أنني هاربة من أهلي لأني تزوجت من رجل طلقني . ولذلك فلسوف أتزوجه من وراء أهلي ، لأنهم من الصعيد ولن يقبلوا أن أتزوج من غير القبيلة التي أنتمي إليها . وقد حاولت التقرب منهم في الآونة الأخيرة لذلك فليسمح لي بالذهاب إليهم في أوقات الأربعاء والخميس والجمعة حتى لا يظنوا بي الظنون . وسوف أحاول أن أمهد لديهم في موضوع زواجنا حتى إذا ما شعرت أنه تقبلوه آخذه إليهم ليتعرفوا به . وصدقني غير أنه سأل : وإذا ما حملت فكيف إذاً ستواجهينهم ؟ .. قلت : في هذه الحالة قد امتنع عن الذهاب إليهم إذا فشلت في أن أعرفك بهم . وأعود بعد ذلك بعد أن أضع مولودي إليهم . قال : هل هذا كلام ؟ .. لكنه وافق على خطتي خشية أن يفقدني . شعرت في الأيام الأولي أن حسه مرهف وأنه لو تعرض لصدمة قد تودي به لذلك كنت حذرة في معاملته ولعل السبب في رهافة حسه ترجع إلى فقدانه حنان الأم في سن مبكرة وارتباطه بأبيه الذي مات فجأة وهو يدخل معترك الحياة .

كنت في الأيام الثلاثة الأخيرة من الأسبوع أذهب لأعيش مع طفلي . بل كنت أذهب في الصباح بينما مرسي في العمل . ومضت الأيام دون أن أحمل . تصوري أنني كنت منزعجة . وكان مرسي يسأل باستمرار كأنما يجد مبرراً يستدعي ألا أغادر البيت . بل كان يسأل : ألم تنجبي من

زوجك الأول ؟ .. قلت : يبدو أنه كان عجوزاً عنيناً فلم يثمر كفاحه المضني معي .

يضحك مرسي لخفة دمي ، وقد عرف أنني كنت متزوجة من رجل طلقني لكراهيتي له . ولكن لـم يعـرف أن ذلـك الرجل ردني إلى عصمته ، ومات . وأنني تزوجت آخر ولا زلت على ذمته ، ويبحث عني ولا يجدني . كنت مختبئة في بيتي أو في قصري أو قصر ابني .. ولا أرتاد أماكن اللهـو أو المتنزهات .

اطمأننت أن فارس لن يقدم على مواصلة البحث عنـي ، فقد كان ضالعاً مع مراكز القوى ، وحكم عليه بسبع سنوات يقضيها في غياهب السجون . كان ثورياً منذ مولده . يخرج في المظاهرات وهو في الدراسة الثانوية . ويتزعم الطـلاب وهو في الدراسة الجامعية . وسمع كلامي حينما طلبت منـه أن يكن وينتهي من دراسته الجامعية . ثم عاد من جديد إلـى السياسة بعد أن هجرته ، ولعل العمل السياسي كـان يمـلأ وقت فراغه . وبدلاً من أن يعارض أندس وسط رجال الثورة . واصبح يعمل ساعداً أيمن لأحدهم . وكان ذلـك الرجـل مرضيا عنه في العهد القديم ثم اصبح مغضوباً عليه في العهد الجديد . وكان فارس لذلك يعد من الضالين المضلين ، فأُخذ بجريرة المغضوب عليه ، وزج به في السجن .

تنتابني في هذه الحالة مشاعر متضاربة . راحـة لعـدم اللقاء . وشوق للقاء . لكن لا يمكن أن أعود إليه ، وأنا تحت رجل آخر . وهناك أمر آخر أتعمد أن أخفيـه ألا وهـو أن

يعرف أن له بنتاً ويطالبني بها . إلى أن حـدثت الحادثـة ، وشعرت بالحمل يدب في أعماقي .. وتركت مرسي إلى الأبد . ولن يفكر واحد من شارع السكاكيني أن ينتقل للبحث عـن امرأة في شارع الأهرام . وصـارت سـيارتي الخاصـة لا تركن في شارع جانبي متفرع من شارع رمسـيس . كنـت أركبها في صباح الأربعاء أذهب بها إلى شـارع الأهـرام لأتفقد حال ولدي . وأعود في مساء يوم الجمعة لأضعها في نفس المكان وأتمشى حتى بيت الزوجية . بل كنت أخرج بها في أوقات الصباح في بعض الأحيان لأقضـي حـوائجي . عادت السيارة من جديد لتدخل القصر الواسع فـي شـارع الأهرام . وترقد في مرآبه .

رجعت إلى ولدي وابنتي ، لأضم إليهم بعد سبع شـهور طفلاً جديداً هو جمال . سميته جمالاً ونسبته إلى مرسـي . وكان في ذلك الوقت قد نسى الناس اسم جمال . وما دمت أنا ضد السائد فقد انتقيت الاسم الذي تناساه الناس .

ربطت - كما هو واضح - بين حملـي وفـراري مـن زوجي ، وهو أمر حدث بتلقائية عجيبة ودون شعور منـي ، وقد حدث في الزيجتين السابقتين نفس الفرار . ووجـدت أن اعرض نفسي على طبيب نفسـي حتـى أعـرف الـدوافع والأسباب التي تجعلني أهجر الزوج كلما حملت منه . كيـف يمتنع علي العيش مع الزوج حينما أشعر أن الطفل يتحـرك في أحشائي ؟ .. لكن ماذا سأقول للطبيب ؟ .. إنني انتقل من رجل إلى آخر على سنة الله ورسوله دون أن يحدث طـلاق

ولا حتى تطليق ؟ .. لأقول له مثلاً إنني أتركه وأجبره على الطلاق ويطلقني ويستحيل علي بعد ذلك أن أعـود إليـه . لأسقط الحالة الأولي التي عدت فيها إلى زوجي ، ولأخفـي أنني استعمل وثيقة طلاقي من الزوج الأول لإثبـات أننـي مطلقة أمام الرجل الجديد . يجب أن أصل إلى الحقيقة الكامنة في باطني وتحركني وتضغط علي أن اهجر زوجي الجديـد كلما حملت ؟ ..

كان يجب أن أزور طبيباً نفسياً ينقذني مما أنا فيه من دوامات . لكن بمجرد أن أضع حملي أنسى أن أذهب إلى الطبيب أنشغل بالمولود الجديد .

فضيلة

كان أخي يعمل في السيارة ويفحص أسـباب العطـب . ويرمقني من حين لآخر . يقارن بين شبه هذه السيدة الأنيقـة الراقية الواقفة أمامه وأخته الممرضة الفقيرة المسكينة . نفس الملامح لكن هذه السيدة ترتدي ملابس فاخرة ولها سيارة فمن أين لفضيلة هذا كله ؟ . . ولعله أقنع نفسه بأن المثل يقول إن الله يخلق من الشبه أربعين . فها هو المثل يصدق الآن .

حينما عاد إلى البيت رآني . حاول أن يتـأملني بعمـق . لعله يرى خطأً منسياً تحت الحواجب أو الجفون . أو احمـر شفاه مطموس . أو شعر كالحرير ينسدل على كتفي لكنه لـم يجد شيئاً من ذلك وأدرك أنني والسـيدة صـاحبة السـيارة وجهان وجسدان متشابهان . وكتم في نفسه لم يقل لي شـيئاً ولم يعرف أنني استحم تماماً قبل أن أغـادر شـقة الـدقي .

وأعود إلى السيدة زينب .وهكذا تجرف المياه كل ما حـدث من تغيرات في الوجه والشعر والجسد .

- وكنت قد بدأت أفقد شهيتي للخمر والسيجارة فلم يعد مهماً المضمضة قبل العودة إلى الحارة . كانت حيـاتي مـع فوزي دكتور أمراض النساء المعروف قد استقرت . لكن هذا الاستقرار كان لحين ، فقد تعرض لهزة أودت به ، حينمـا دخلت حياته نجمة من نجوم الإغراء في السينما المصرية . لا أعرف كيف استطاعت أن تقنعه أن يطلق حياة العزوبيـة والدخول في عش الزوجية . وكيف أقنعتـه أن يتزوجهـا ولها بنت من رجل آخر . عادة ما يتزوج الأعـزب امـرأة بكراً لم يمسسها رجل . وهذه النجمة كانت قد تزوجت مـن قبل ، وهناك إشاعة أنها تزوجت أكثر من رجل ، وليس فقط هذا الرجل الذي أنجبت منه ابنتها . وهكذا مرة واحدة أختفي الدكتور فوزي من حياتي ، ولكنه كان كريماً معي فلم يطلب مني أن أرد شقته إليه ، لأن الشقة مكتوبـة باسـمي ، ولـم يحاول أن يفسر أسباب هذا التحول ، إنما انقطع فجأة عني . كما تنقطعين أنت عن أزواجك . أيكون هو الآخر مريضـاً بمرض نفسي ؟ ! .. لكن أعتقد أن في حالتي لم يكن الدكتور فوزي يريد أن يسبب لنفسه حرجاً . قرأت خبر زواجه فـي إحدى المجلات الأسبوعية . وقد قررت نجمة الإغراء أنهـا سوف تتقاعد ولن تعمل مرة ثانية في المجـال السـينمائي ، وذلك ما دعاني للتفكير أن أحتل مكان هذه النجمـة لأمـلأ فراغها الذي سوف تتركه وراءها ، لذلك كان علي أن أتردد

مرة أخرى على الملاهي الليلية ، لعلي أجد مخرجاً أو منتجاً يرفعني إلى مصاف النجوم ، بدلاً من أبقى عاهرة لا مستقبل لها . لكن هل لدي الموهبة التي ستساعدني على حفظ أدواري وتقمص الشخصيات وأداء الأدوار أداء بارعاً ؟ .. أقول لك إنني تركت المدرسة وأنا في المدارس الإعدادية ، وقد أعلمني أبي أنه غير قادر على الصرف علي وعلى تعليمي ، ويجب أن أتخذ طريق العمل مثل أخي الكبير . حتى أعلنته أنني سأعمل ممرضة في مستشفي في وردية الليل مقابل عشرين جنيهاً . كان المهم عنده أن يدخل جيبه خمسة عشر جنيهاً ويترك الباقي لي . وكنت أستغرب كيف يتباهى بأنه صعيدي ويستحل عرق ابنته . كان الأولى به أن يترك لي الجنيهات العشرين على أن أعيش منها . لا أن يلتهم ثلاثة أرباعها .

لم أفكر أن ادخل عالم الفن إلا بعد أن سرقت نجمة الإغراء مني الدكتور الفاضل . وساءلت نفسي : ماذا يكون الوضع لو عرف أهلي بذلك ؟ ! .. سوف أتعرض للذبح بكل تأكيد . لم أعد أهتم بالقتل . كانت متعتي في كافة والاغتيال في الكافة الأخرى من ميزان الحياة . لو كان قد تعرف علي أخي في الورشة وهم بقتلي ، لم يكن ذلك سوف يزعزع من استمراري في طريق المتعة ، لذلك فلا أهمية في هذه الحالة لأن يعرف . التقطت الخوف من قلبي وألقيت به في سلة المهملات . كان علي في هذه الحالة أن اصطنع اتفاقاً مع كومبارس يتقدم لأبي على أنه سوف يتزوجني ، وأقبل .

وبعد ذلك لا يرى الأهل وجهي ولا أري وجوههم . وأعيش حياتي . ولسوف يتم تغيير اسمي . وقد اصبغ شعري باللون الأصفر . وأغير في ملامحي . عيناي الواسعتان أضـيقهما .وأنفي ألونه . وشفتي أصبغهما . وقد تساعد أدوات التجميل الحديثة في تغيير ملامحي ، بالإضافة إلى استئجار فتـوات تحيطني من كل جانب . في هذه الحالة سيكون هناك عـازل بيني وبين الراغبين في الذبح . وأعتقد أنه لن يتسنى لهم أن يعرفوا مقري ولا ما آلت إليه حياتي لأنهم لا يرون السـينما ولا يطلعون على الصحف والمجلات ولا يسمعون المذياع .

وسقط فأر السينما المصرية في يد المـرأة المبتذلـة ! .. كان مخرجاً سينمائياً قصير القامة . أسود الحاجبين يغـوص كل حاجب في الآخر . يشهد الجميع بعبقريته ، ولو أنه قبيح الوجه تأنف الممثلات من الجري وراءه . غير أن المنتجـين يقدورنه . كان قصير القامة جداً طويل البـاع علمـاً وفنـاً ومدرساً في أكاديمية الفنون . وعاملاً في المجال الفني منـذ زمن طويل . ولم يكن قد دخل الدنيا لأن واحدة لم تلاحقه . وحينما لاحقته وعدني بالمجد .

قبلت أن أصاحب هذا المخرج القبيح في سبيل أن أكـون نجمة إغراء ، مثل تلك النجمة التي خطفت طبيب القلب مني . واتخذت من سكن المخرج مقراً لي . وكان بحكم وظيفتـه يسهر الليل ، فأسهر معه . وينام بعـد انتهـاء محاضـراته الصباحية في الأكاديمية فأكون نائمة في حجرتـي فـي دار عائلتي . كان أخي وأبي ينامان في حجرة . وأنا وأمي ننـام

في حجرة أخرى . هكذا أراد أبي ، ولكنه كان ينـام فتـرة المساء مع أمي في حجرتنا ما دمـت أنـا فـي المستشـفى المزعومة أعمل .

كنت إذاً ألتقي في الليل مع رأفت . بل اذهب معـه إلـى الأستوديو ، وأجلس بالقرب منه . وقد اعمل كومبارس فـي أحد الأفلام . وعادة ما لا يظهر وجهي إنما جسـدي . بـل كنت لا أنطق . ووعدني بدور هام في أحد أفلامه القادمـة عندما أزداد خبرة وأتمرس بالعمل السـينمائي . بـل كنـت أشترك مع الماكيير في تجميل الممثلات والممثلين . عرفـوا أنني صديقة المخرج وأنه لا يستغني عني . وكلمتي مسموعة لديه . سمحوا لوجوههم أن تتجمل بيدي . بل كـان رأفـت يدعوني إلى تذويق ممثلة بدقة كما يريد فأتقن التـذويق . أو كومبارس كان من المفروض أن يكون قبيحاً فدخل المشـهد ووجهه تظهر عليه السماحة ، فأقلبه أمامه . وصـرح لـي الماكيير الأصلي قائلاً : أنا أغار منك يا ست فضيلة . لقـد أتقنت الصنعة جيداً . سوف تتركيننا على الرف . قلـت : لا تخف . إنها هواية لا أتقاضي عليها مالاً . ولن أمتهنها .

كان رأفت يسلمني كل ما لديه من مال . وكان يحاول أن يغطي على قبحه بكرمه ، فالقبح منفر لكن الكـرم جـاذب . ولم أغدر به ولم تسول لي نفسي أن أدس الأموال في جيبـي . إنما كنت أضع في حسابي الجاري في المصـرف بعضـاً منها بعلمه ، وأضع البعض الآخر في حسابه لأن لا وقـت لديه أن يذهب إلى المصرف ليضعه . كان العمل يدر عليـه

المال باستمرار لذلك لم يكن يهتم بما في جيبه أو بمـا فـي جيبي . وكنت ألازمه كظله . وجاء يوم سألني : أين تذهبين في الصباح ؟ .. لم لا تنامين في الشقة معي ؟ .. قلـت : إن والدي صعيدي ولا يمكن أن أنام خارج البيت وإلا قتلنـي . قال : إذاً كيف يسمح لك بالسهر ليلاً . قلت : لأنـه يعـرف أنني أعمل في مستشفي . قال يقترح : ماذا لو قلت له إنـك بصدد السفر إلى بلد عربي ، وتتمكنين أن تتركي بيته إلـى الأبد ، وتعيشي معي . سألته : أتتزوجني يا رأفت ؟ .. قـال : أنا ضد مبدأ الزواج . لكن لا بأس أن تعيشي معي .

دليلة

نسيت أن أقول لك ما كان بأمر خيري وفهمي ابني عبـد الرزاق . بعد أن أنجبت جمال . قررت أن ابحث عن عمـل أشغل به وقتي . توطئة لأن أُؤلف شركة بعـد أن اكتسـب خبرة في ذلك العمل . لقد حرمني زوجي السـابق - هكـذا اعتبرته - من أن أعمل . وجعلني أعيش بين أربعة جدران بعيدة عن الحياة العملية .وبدأت ابحث عن عمل أشعر فيه بذاتي وكياني . واشتغلت في شركة خيري . غير أنك كشفت له حقيقتي .. ولم أكن أعرف كيف كشفتها . عزلنـي مـن العمل كسكرتيرة له ونقلني إلى قسم المخازن . المهم أننـي تعلقت بأخيه وهو يمثل دور الساعي حتـى يكشـف لـص المخازن . ووضح للجميع أن اللص هـو المـدير - مـدير المخازن - نفسه .وتعلقت بفهمي كثيراً . كان قلبـي يتسـع لحب أكثر من رجل . أو لعلها شهوة تعتريني عندما أعجـب

برجل ، فأسعى إليه حتى ألبي مطالبها . ومثلما تمكنت من أن أنصب شباكي حول خيري . نصبت شباكي حول فهمي . ولكن خيري لم يعرف أنني على علاقة بأخيه ، أنا التي أحبني . ولو عرف لربما تمكن من فسخ العلاقة مبكراً . واستطعت أن أملأ دماغ فهمي بأسطورتي بالتدريج . في مقابلة لنا سربت له خبر أنني كنت متزوجة وتم طلاقي ، بل مات زوجي بعد طلاقي . وكان السبب في زواجي من رجل كهل ، أن أبي كان على شفا حفرة من الإفلاس ، وأنقذه ذلك الكهل من السقوط في الحفرة مقابل الزواج من ابنته الفاتنة . قبلت رغماً عني ، لكن لم أتمكن من الاستمرار في الحياة الزوجية ، وطلبت الطلاق ، وساعدني أبي في الضغط على زوجي ، فطلقني . وكانت أمواله لم تنفع في وقف إشهار إعسار أبي . ولم يبق بعدها طويلاً . مات مفلساً . وترك لي الشهادة الجامعية سنداً ضد الفقر . طبعاً ظهر فهمي بمظهر الرجل الشهم ، وقال إن هذه الأمور لا تهمه ، فقد تعلم في أوربا أن الفتاة يمكن أن تكون لها علاقات سابقة قبل الزواج لكن بمجرد أن تدخل من باب الزوجية تخلص لزوجها . ووعدته أن هذا ما سيكون . طلبت منه أن استمر أعمل في الشركة ، فقد يفكر يوماً أن يطلقني ، فأجد لا سند لي غير وظيفتي ، أجد دعماً أرتكز عليه في مستقبلي . وعدني أن يكون مؤخر الصداق مبلغاً كبيراً يساعدني على أن يكون خميرة لمشروع شركة أكون أنا مديرتها .

تزوجنا واستقلت . ولم يعرف فهمي أن هناك علاقة كانت لي بأخيه خيري من قبل . ولم يحاول فهمي أن يعلن زواجه في الشركة ولا أن يدعو أخاه وأخته على حفـل الـزواج . وأظهرت استيائي من ذلك ، لأن معني ذلك أنه يجد عاراً أن يرتبط بي ، الأمر الذي لا يريد إعلانه . ولعله كان يخجل أن يشهر الزواج لأنه يعتبرني من طبقة الفقراء أو على الأقـل من طبقة عزيز قوم ذل . ولم يكن يعـرف أن بإمكـاني أن أبيعه واشتريه . وتأسف لي طويلاً ، ووعـدني أن يعرفنـي بأخيه وأخته فيما بعد . وكان إعلان استيائي مجرد تمثيلية ، لأني أدرك أنني لن أبقى طويلاً مع فهمي ، فإذا لـم يكـن الإشهار كاملاً فمن السهل أن أفلت دون ضـجة ، بـل إن فهمي نفسه لن يفكر أن يقول إن زوجتي هربت منـي ، ولا أعرف أين أجدها . فمادام أن غير الشاهدين لا يعرف عـن ذلك الزواج شيئاً فلن يسأله إنسان : أين زوجك ؟ ..

جاء يوم كان مكفهر الوجه ، وراح يقول :

- لقد رآني أخي خيري معاً .

- وما في ذلك ؟

- يقول إنه كان على علاقة بك قبل زواجنا .

- وما في ذلك . ألم تقل إن المهم هـو الإخـلاص بعـد الزواج .

- وقال إنه عرف أنك ثرية ولست فقيرة . وأن لك أولاداً كثيرين . وتعيشين في قصر .

- إنها كانت مبررات أخترعها لكي يتركني . لأنه شـعر أن مستواه أعلى من مستواي . وكما شعرت أنت أن مستواي أدني من مستواك ، لذلك أحجمـت عـن إعـلان زواجنـا خاصمت النور حفاظاً على سمعتك .

- ماذا تقصدين ؟

- اقصد أنك من البداية تشعر أنني دون طبقتك ، لـذلك طلقني ترتاح .

- أطلقك . على أن تبرئي ساحتي من كل ما علـي مـن التزامات .

- وأنا أعيش على الطوار أتسول .

- أنت ثرية لا يهمك شيء .

- أصدقت هذه الترهات التي يتفوه بها أخوك .

- لن أطلق . وما لديك من خيل أركبي أعلى ما فيه .

الحقيقة أنني شعرت أن هناك حملاً فـي أحشـائي . وأن علي أن أغادره . وتركت بيت الزوجية إلى غيـر رجعـة . وعدت إلى مقري بشارع الأهرام .

يبدو أنك كنت قد أشرت إلى خيري من قبل عـن موقـع القصر . ويبدو أن فهمي أتصل بأخيه خيري وأبلغـه أننـي تركت البيت ، وأنه ينوي أن يقتص مني لأني غادرته بـلا أذن منه ، وأخبره خيري على الفور بالعنوان ، ذلـك الـذي كنت أنت أبلغته به حتى يتأكد أنني امـرأة مزواجـة ألعـب بالمال لعباً وأدعي خلو الجيوب منه ولي عديد من الأطفـال من رجال آخرين .

فتحت مربية الأطفال أمينة باب القصر . إنها امرأة مثقفة على درجة عالية من الحشمة والأناقة . تتكلم بكبريـاء . لا تشعرك أنها خادم في القصر ، إنما هي مديرة له . وهنـاك فرق كبير بين خادم ومديرة . كلمته وهي شامخة الأنف من خلال نظارتها الكبيرة . وسألته :

- ماذا تريد ؟

أجاب بعصبية زائدة :

- أريد السيدة دليلة شكري .

أجابت بشموخ :

- من دليلة شكري ؟ ..

- سيدة هذا القصر .

- ليس في هذا القصر سيدة غيري .

- أليس هذا القصر ملكاً للسيدة دليلة شكري ؟ ..

- لقد كان .. قبل أن يفلس أبوها واشتري منه . . هذا القصر .. لا لم اشتره .. بل رسا علي في المزاد العلني الذي أُقيم بمناسبة إشهار إعساره .

- وأين هي الآن ؟ ..

- من ؟ ..

- دليلة شكري .

- أجئت تسألني عنها . وكيف أعرفها ؟ .. أنا حتى لم أرها . لم أر إلا المرحوم والدها .

انحنى بأسف واعتذار وانسحب .

أتقنت أمينة دورها . وكنت أتوقع مجيء فهمي ، فقمـت بتحفيظها ما ستقوله . إن أمينة هي مستودع أسراري . يبدو أنها كانت تعلم أنني أعاني من عقدة نفسية لذلك أهرب مـن أزواجي الكثيرين حينما أحمل منهم . وكانت في حاجة ماسة لتربية أولادها بعد موت زوجها ، فوافقت علـى أن تكـون مدبرة القصر ، وتحتضن أطفالها الأربعة داخـل القصـر ، ووجدتُ أن تربية أطفال يتامى والإغداق على أرملـة فيـه الكفاية في الوفاء بواجبي في زكاة المال . لم أكـن أعـرف أحداً أمنحه زكاة المال ، فكانت تلك الأرملة وأولادها الأربعة .. من أجل ذلك قالت لك صديقتك فيفي أن هناك جرمزاً من الأطفال في القصر ، وأن كلهم أبناء وبنات دليلة شـكري . ولو حاول فهمي أو كان ناصحاً لذهب إلى الشهر العقاري ، وتأكد من أن القصر ملك دليلة شكري ، وأن أمينـة كانـت مدعية تخدعه .

ولم أنتظر حتى تواتي فهمي هذه الفكرة ، فانتقلت بالأولاد جميعهم ، ومعي أمينة إلى قصر ابني عاطف مـن زوجـي الأول . وكان لا يزال قاصراً وأنا الوصية على أمواله .

فضيلة

لقد كان خيري نقطة تحول في حياتي . تعرفت بـه فـي مكتب أحد المنتجين ، وكنت أرافق رأفت المخرج السينمائي كظله . ولما كنت أفيض أنوثة جذبت الرجل من أول نظرة . كان يريد من المنتج أن يتكفل بإنتـاج فـيلم تسـجيلي عـن مصانعه يعرض في دور العرض السينمائي ، ووافق رأفـت أن يخرج الفيلم . واستقبل رأفت خيري كثيـراً فـي شـقته الخاصة (وهي غير فيللا العائلة) ، يستعرض معه الفـيلم السينمائي وعلى ماذا سوف يركز ، وكثيراً ما ثرثرت معه ، حينما ينتهيان من مناقشة السيناريو . كما كان رأفت يسـتقبل خيري في شقته حيث أكون متواجدة دائماً . ويوماً قام رأفت ليستخرج زجاجة ويسكي من مستودعه السري ، مال علـي خيري وهو يقول :

- أنا متيم بك .

قلت بسخرية :

- وأنا أعرف . أقرأ نظراتك .

قال بهمس :

- ماذا يحدث لو سرقتك من هذا المخرج القبيح ؟ ..

- لن يحدث شيء . لكن سوف تغرم كثيراً ..

- لن يكون أكثر من السرقات في مصنعي .

-= ولم لا تعلم المشاهد في فيلمك التسجيلي بأنك تُسرق ، فيسرع الناس بشراء منتجاتك ناقصة ما تخسره .

- لا سوف أعلنهم أنني سرقت الأنوثة والسحر والجمال .

اتفقنا على أن يسرقني بمجرد أن ينتهي من الفـيلم الـذي يخرجه رأفت . كنت قد طلقت حيـاة البغـاء ، ولـو أنـي تخصصت برجل واحد . شيء أشبه بالزواج ، لكن يختلـف عنه في أن الرجال يتغيرون من حين لآخر . وهكذا استبدلت برأفت خيري . ولكن معه شعرت أن الحياة في ظل العشـق حياة رخيصة مهينة . يمكن بين يوم وليلة أن يقتلعنـي مـن حياته ، واصبح بلا رجل ولا مورد ولا سقف بيـت . وقـد حدث ذلك حينما اكتشفت أنه يحـاول أن يتزوجـك ويلفـظ الغانية التي تعيش معه . يبدو أنه زير نساء يضع أنثي ويخلع أنثي بمنتهى السهولة ، لذلك قررت أن أقيم مشـروعاً مـن الأموال التي تجمعت في يدي من السنين الماضية ، ولم أكن أمسسها .

أخطرت أمي وأبي وأخي أنني تسلمت عقد عمل في دولة عربية . وأن العقد سخي للغاية . سألني أخي : ألا يطلبـون لك حرم محرم ؟ .. قلت : لا . إنني سوف أحيا فـي سـكن الممرضات . وفعلاً استخرجت جواز السفر وشاهده والـدي وأخي ، وتحسسه أخي كأنما يرغب في أن يرافقني أو أجد له عملاً وعلي أن استخرج واحداً له .

ولم يستطع والدي العملاق أن يقف في طريقي ، فأنا لـن أكون حرة نفسي في البلد الذي سأذهب إليه . إنمـا سـأكون سجينة المستشفى والدار التي أقيم فيها ، فلا رجال يمكـن أن يطاردونني . ولا اتصال برجال . عقدة كـل صـعيدي أن تكون للمرأة صلة بالرجال ، لأن معني تلك الصلة أن المرأة

غير شريفة . ولولا الحاجة لمنعني من العمل . لكنـي فـي مصر أعمل مع رجال - كما يتصورون - فما الفرق بـين مصر وأي بلد عربي .

انقطعت صلتي بأهلي فيما عدا خطابات أرسلها بالبريـد بمبالغ معينة على صندوق بريد أنشأته لأبي في بريد السـيدة زينب . وطلبت منه أن يدفع سنوياً قيمة إيجـار الصـندوق حتى يظل مفتوحاً للخطابات التي تصل منـي إليـه . وقـد ادعيت أنني أعطي هذه الخطابات إلى زميلة لي تسافر إلـى القاهرة كثيراً في مهمات لصالح المستشفي ، وأطلب منها أن ترسلها إليه على صندوق البريد . ولعلهم صدقوا هذه اللعبة . ولعلهم استغربوا أنني لم أرسل لهم عنواني .

افتتحت محلاً في الزمالك . وبين الدقي والزمالك خطوة . والسيارة الخاصة تساعد على تقريـب المسـافات . لحظـة وأكون في شقتي . وأخرى أكون في المحل . وتخصصـت في بيع الملابس المستوردة من بـاريس واليونـان وروما ولبنان .

كنت أرفق صكاً بالخطاب المختصر الذي أرسـله علـى صندوق البريد .وطلبت منهم أن يغادروا ذلك الحـق الـذي يسكنون فيه في حي السيدة زينب وأن يستأجروا شقة فخمة . يتركوا الحي الفقير إلى حي الأثرياء . . ولما تعرفـت فـي مصرفي الخاص بأحد الموظفين أرشدني أن أترك أمراً فـي حسابي الجاري لأبي لاستلام قيمة الصك الشهرية . ولعلهـم استطاعوا أن يتركوا الحجرتين وينتقلوا إلـى شـقة جديـدة

وتركوا عنوانهم الجديد لدي الصراف . وكنت قـد أعلمـتهم بهذه الخطوة ضماناً لعدم ضياع الصك ، ويكون هذا الأمـر نافذ المفعول بإذن الله ، حتى أعود إلـى القـاهرة . وهكـذا انتهت علاقة أبي بالصندوق وتم قفله . وصار يتـردد كـل شهر على المصرف . وعرفت أين يسكن من البيانات التـي كان يدلي بها للصراف من واقع بطاقته العائليـة . ولكنـي أحجمت عن الذهاب إليهم .

لا يبعد تفكيرك في شأن الصراف الذي تعرفـت بـه أن هناك علاقة قامت بيني وبينه . إنه مجرد تعارف . ألتقي به في المصرف عندما أودع المال أو أسـحبه . ويسـهل لـي الصرف بعيداً عن الصفوف ، فقد كان المصرف في وسـط العاصمة ومزدحم باستمرار . ولم افتح الحساب في مصرف بالزمالك أو الدقي حتى لا يحدث يوماً أن ألتقـي بالوالـد أو الأخ . . وكنت أتعمد أن أذهب في منتصف الشهر حتـى لا ألتقي بهما . الواقع أن بعد إنشاء المحل وشهرته ، واهتمامي بعملي فيه . صرت راهبة في محراب الحياة . لـم أشـعر بحرارة الجنس الأخر من جديد . ولم يمسسني رجل . قطعت كل علاقة لي بالشهوة أو الرغبة في المتعة . سقطت الشهوة من جسدي . أصبحت طيفاً يأكل ويلبس ويعيش فقط . لم أعد أفكر أن أرتبط برجل يهين جسدي ويستعبده ويستذله من أجل قليل من المال . يأكل لحمي ويلقـي عظـامي إلـى سـلة المهملات . لقد كان اكتشافي أن خيـري يريـد أن يلفظنـي ليتزوجك هو بداية تحولي . شعرت فعلاً أنني قطعة قمـاش

ينظف بها حذاءه . يقرف إذا اضطر أن يضعها في جيبه . ويوم عرفت أنه زهدك لفظته . وبدأت انشغل بمحل الملابس الجاهزة ذلك الذي أسسته ، وصرت أستورد له الملابس من الخارج بنفسي أو بواسطة عاملات عندي . أعود حاملة عدداً من الحقائب وأمر على الجمارك على اعتبار أن هذه الحقائب تخصني . وقد أدفع ثمناً زهيداً وقد لا أدفـع حسـب كميـة البضاعة . ولم تكن هناك أهمية لدفع الجمـارك فالمسـتهلك يتحملها في النهاية . ولا يبقى فستان في المحـل لا يبـاع . ونساء الزمالك من ثريات ودبلوماسيات وصـاحبات أمـوال يتهافتن على المحل .

نقلت مكتبي إلى الدور العلوي من المحل لأراقب حركـة البيع بدقة . ويوماً دخل أخي تصحبه عروسه . لم يكن ذلـك الجلف الذي عرفته . كان مهندماً وعروسه راقية رقي الطبقة المتوسطة . كان يحاول أن يفرجها على البضاعة . رأيته من مكتبي . شاهدته . شعرت بالشوق يسـري فـي ضـلوعي والرغبة في أن أحدثه ، لكني ترددت . خفت أن ينفـر فـي رأسه العرق الجنوبي ، ويبدأ بمحاسبتي بطريقة مستبدة غير كريمة تؤثر على المحل وعلى سمعته وسمعتي . وأرسـلت إحدى العاملات لتخبر صرافة المحل أن تجري لـه خصـماً كبيراً . غير أنه وجد أن البضاعة لا تزال غاليـة الـثمن . وكانت عينا خطيبته تكادان تجحظان راغبة في الشراء لكـن إمكانياته لم تكن تسمح . وتردد يوسف في الشراء . وخرجا بالفعل دون أن يشتريا شيئاً . يومها حزنت فعلاً .

وقررت في ذلك الوقت أن أعود إلى مصر من ذلك البلد العربي الذي كنت أعمل فيه . بلد مزعوم بطبيعـة الحـال . والزعم أنه لا يعطي العاملات لديه إجازة زعم مبالغ فيـه . كنت أريد أن أعود لأستقر . وأزعم أنني اشتريت ذلك المحل الذي أملكه بالفعل من ذلك المال الوفير الذي ادخرته طـوال سنوات الغربة . هكذا كان يجـب أن أظهـر أمـام أعـين عائلتي .

كان لدي عنوان أسرتي ، ذلك الذي تركه والدي لصراف المصرف ، وطفق يتركه في كل مرة يقبض فيها ما تركته له من مبالغ شهرية . لكن لما ذهبت إلى ذلك العنوان ، اتضـح أن لا أحد باسم أبي هناك ، وأن العائلة كانت تسكن من قبل لكنها تركت المنزل منذ زمن بعيد .. ولما راجعت المصرف علمت أن أبي قد توقف عن استلام المبلغ الشهري منذ وقت بعيد أيضاً .

دليلة

أتعرفين في المرة الأخيرة التي هجرت فيهـا زوجـي ، حتى أخلد مع أولادي في قصر الزمالك . قصر ابني عاطف . تركت الهرم بعد أن عرف فهمي مكان إقـامتي . ولعلـه حضر مرة أخرى ليتأكد من صدق كلام خيري . ولعله لـم يجد أحداً . بل لم يجد من يدله إلى أيـن هـاجرت صـاحبة القصر . واستطعت بعد فترة أن أؤجر القصر لعائلة ثرية .. إيجاراً مرتفعاً بشرط ألا يكون لها الحق في البقاء إلى الأبد . وقد وسع السمسار مداركي بأن أؤجره مفروشاً .

ولما وضعت طفلتي الجديدة .. سوسن . صممت أن أفتش عن طبيب نفسي ماهر . ولم يكن أمامي غير طبيب معروف يظهر كثيراً في التلفاز ، وله كتب مع باعة الصحف ، وهـو أستاذ جامعي مشهود له بالكفاءة .

- هناك دخلت العيادة . ورأيت المرضى . هالني ما هم فيه من بؤس . سحن مقلوبة . وما يقترفونه من حركات وهم جلوس يثير الغثيان . وساءلت نفسي : هل أنا مثـل هـؤلاء المرضى ؟ .. وهل سيكون مصيري مثلهم لو كنت أعـاني من مرض ؟ .. إن كل ما أفعله أنني أهرب من زوجي بعـد أن أشعر بالحمل . وسألت الطبيب : هـل سـيؤول حـالي ويصبح كحال هؤلاء المرضي القابعين في الخارج ؟ ..ابتسم وقال : لا أبداً . إن حالتك ليست متأخرة . عادة مـا يفكـر الإنسان في اللجوء إلى الطبيب النفسي بعد أن تتدهور حالته . وسألني : مم تشكين ؟ .. قلت له قصة مختلقة قريبة مـن قصتي . إنني أتزوج الرجل وحينما أحمل منه أطلب الطلاق أو أهجره فيطلقني . وبدأ الطبيب يغوص فـي الماضـي . جعلني أروي له حوادث حياتي الأولى .ولم يكن فيهـا مـا يستدعي التلفيق أو أخاف أن أرويه . حكيت له علاقتي بأبي ذلك الثري السكير . وترددت كثيراً وهو يسألني عن أمي . أجبت أنني لا أعرفها . بلا لم أرها . كل ما أعرفه عنها هو اسمها لأنه موجود في شهادة ميلادي . لكن لا أعرف أيـن تقيم ؟ .. ولم يحاول أبي أن يعرفني بها ؟ .. بل يبـدو أنـه

اقتلعني من حضنها أو خطفني في غفلة منها ولاذ بـالفرار . ولم يعد يتصل بها بل لعله طلقها .

هنا ابتسم الطبيب وقال : هنا مربط الفرس يا دليلة هانم . أنت لا تدرين ما تفعلين مع أنه واضح جداً . أنت تحـاولين أن تحمي أبناءك أو بناتك من آبائهم . تخشـين أن تتكـرر مأساتك . أن يخطف الأب ابنه أو بنته . ويفر منـك . أنـت تفرين منه قبل أن يفر بولدك أو ابنتك .

ذهلت لهذا التفسير ، ووجدته معقولاً . أنا أخاف فعلاً أن استمر في كنف الرجل حتى لا يغدر بي . كيف لم انتبه إلى هذه الحقيقة ؟ ..

قلت أسأله : هل تعتقد أنني شفيت بعد أن عرفت الحقيقة .

قال الطبيب : مشكلتك يا دليلة هانم أنك لا تثقين بالرجال . فقدت الثقة بهم . وتظنين أن كل الرجال هم مثـل أبيـك . سوف يخطفون أولادهم ويولون الفرار . الأمر يحتاج منـك أن تثقي بالرجل وأن تعيشي معه بعد أن تضعي مولـودك . وأن تستمر الحياة ومعكما مولودكما سنة بعد أخرى . وسوف تجدين أن الرجل أهل للثقة والعيش معه طوال العمر .. ولن يكرر معك مأساة أمك مع أبيك .

خرجت من عند الطبيب على أمل أن يراني ثانية . لكـن كنت على ثقة أنني لن أعود إليه . إذ شعرت فعلاً أنني فاقدة الثقة بالرجال . والأمر يحتاج إلى ما يعيد لي هـذه الثقـة . ويبدو أن الأمر مستحيل .

فكرت أن أعود لفهمي وأن تتربي ابنتـي سوسـن فـي أحضانه ، لكن لم يكن بمقدوري أن أترك عـاطف وعفـاف وجمال بمفردهم مع أمينة وأولادها - رغم أني تركتهم مـن قبل - وأتفرغ للزوج وأنسى الأولاد . وكيف اثبت لفهمي أن هؤلاء الأبناء من زواج حدث وأعقبه طلاق ، والحقيقـة أن هذا لم يحدث . حتى عاطف هجرت أباه ولم يطلقني . ومات ولا زلت على ذمته ، بل تزوجت عليه وهو لا يدري .

وقررت الإقامة في قصر الزمالك . بعيداً عن كل الرجال والأزواج السابقين في نظري . أتفرغ لتربية أولادي وأولاد أمينة أيضاً ، فصار في القصر ثمانيـة أطفـال فـي عمـر الزهور .

ووضعت هدفاً أن أبدأ في البحث عن أمي ، تلـك التـي لفظها أبي وسرق فلذة كبدها .. والتقينا في محلك بالزمالك . أتعرفين كنت أشك أنني رأيتك من قبل لكن أين ؟ .. كنـت مختلفة اختلافاً كلياً عن البنت الفقيـرة التـي رأيتهـا فـي الحجرتين الكئيبتين . يوم كنت أطارد زوجي فهمـي . ولـم أكن قد اقترنت به بعد . يوم عمل ساعياً دون علم أخيه فـي شركته وهمت به .

ولعلك أيضاً لم تعرفي أنني تلـك المـرأة التـي كانـت ستستولي على خيري منك . لكننا أصبحنا صـديقتين بعـد ترددي على محلك أشتري منه . وأدفع لك بسخاء . لا تهمني النقود ولا يؤثر في أعصابي صرف المال ولا أشتري لنفسي فقط إنما لأولادي وأولاد أمينة وأمينة نفسها . كنت لا زلـت

تعملين بمفردك لذلك توثقت العلاقة بيننا سريعاً ، فليس أكثر من توثيق العلاقة مع الزبون غير الثرثرة . ولو كنت دخلت محلك بعد ذلك بسنوات واشتريت منه ملابسي أو ملابس أولادي لما قابلتك ، لأنك كنت تجلسين في الدور العلوي من المحل حيث الإدارة . ولو أنك كنت تتطلعين بنظرات ثاقبة إلى ما يجري بالدور السفلي من المحل .

عندما زرتني أول مرة ، جمعنا هدف واحد هو البحث عن الجزء الضائع من حياتنا . كان ذلك الجزء هو أمي . وكان بالنسبة لك هو عائلتك . وقلت لك :

- لابد أن نضع خطة للبحث عنهم .

- وما هي هذه الخطة ؟ ..

- إن أمامي خمسة وعشرين مليوناً من الإناث على أن أبحث فيهم عن أمي .. ولذلك أعجز عن وضع هذه الخطة .

- ولم لا تبحثين في مكان مولدك .. ربما لا تزال أمك تعيش في ذلك المكان .

- يا عزيزتي إن أبي استخرج شهادة الميلاد .. وهو الذي أملى على الكاتب العنوان . والعنوان مقر قصره في الهرم .

- أنا اعتقد أن أبي مات ، لذلك لم يتردد على البنك لأني انتظرت شهراً بعد شهر حتى يأتي لاستلام المبلغ المرصود له في حسابي الجاري ، فلم يحضر . وكنت قد أوصيت الصراف أن يدقق في عنوانه . لكنه لم يحضر . ومن غير المتصور أن يأتي أخي لاستلام المبلغ بدلاً منه ، لأني لم أترك مثل هذا الأمر للبنك من قبل .

- تصوري أنني لا أعرف حتى الآن أين تقيم أمي . لقـد أخفى عني أبي كل شيء . ولم أكن اجرؤ أن أسـأله كـان مخموراً طول الوقت وإذا ما فتحت سـيرة أمـي يمكـن أن يضربني . الخمر تحوله إلى وحش ، لذلك كنت أتحشاه .

- ليس أمامنا إلا اليأس .

فضيلة

كنت اعرف أنك دليلة شكري ، تلك التي كانت ستسـرق خيري من أحضاني . وليتك فعلت ، لكن لم تفعلـي . زهـد فيك لماضيك الذي أخفيته عنه . والحمد لله أنك زهدت فيه . لقد جعلني ذلك استمر في الشعور في المهانة ، وأنني نكرة ، وأنني امرأة ضحت بشرفها لقاء مقابل زهيـد . واسـتمرار خيري معي جعلني اعتزم أن أطلق هذه الحيـاة الضـالة ، جعلني اعرف أنه في أي لحظة سوف يلفظني مثلما تُلفظ نواة المشمش . ولو أن الفقراء يستفيدون من النـواة فـي صـنع "الدقة ". تلك التي نأكلها مع السميط ، وتكون وجبـة كافيـة تملأ البطن . إنها تضاف إلى السمسـم والملـح والكمـون وغيرها لتعطيه نكهة وتجعل الإنسان يتذوق السميط بمتعة إلا إذا كانت النواة مرة فيطاح بها في الزبالة . ويبدو أنني كنت النواة المرة التي ألقى بها خيري في سلة المهملات بعـد أن أكل مشمشها . ولكن النواة أفلتـت منـه قبـل أن يلقيهـا ويعصف بها .

لقد وطنت نفسي على قبول الأمر الواقع . لا رجال بعـد اليوم . ولا بحث عن عائلة مفقودة . يمكن أن أترك للصدفة أن تريني إياها وإلا علي أن أعيش حياتي .

دخلت نجمة الإغراء بصحبة زوجها . جـاءت لتشـتري ملابس للسهرة من ذلك المحل ذي الصيت الذائع . كنت أمر على العاملات أتفقد أحوالهن . حينما رأيت الدكتور فـوزي يصحب زوجه . لم يحاول أن يكلمني أو يصافحني . أدعى البراءة أمام زوجه . واشترى ما اشتراه . وسأل العاملة . ألا يوجد خصم خاص ؟ .. قالت العاملة : سل صاحبة المحل . ظنني في البداية أنني عشيقته السابقة جئت بالصدفة اشـتري ملبساً. فوجئ أنني صاحبة المحل . قال ؛ نطمع في خصم يا مدام . قلت كأني لا أعرفه وأعرف نجمتنا المشهورة : مـن أجل المدام فقط . أما أنت فلست شفيعاً لها . ضحك وقـال : وهو كذلك . ونجمة الإغراء تشعر بالفخر لأنهـا معروفـة وهو طبيب النساء غير معروف . وقررت خصـماً خمسـة وعشرين في المائة وسلمته الإيصال ليدفع . شكرتني نجمـة الإغراء وصافحتني ممتنة .

جاء في اليوم التالي ، وطلب مقابلتي . سألته :

- هل لاحظتما عيباً في الفستان ؟ ..

قال :

- لا .. الفستان ممتاز .

ثم سكت قليلاً وسألني :

- ألا تذكرينني يا فضيلة هانم ؟ ..

قلت بسخرية :
- وهل ينسى المرء أعز الناس لديه يا دكتور فـوزي . كنت أظن أنك الذي نسيتني . كذلك تجاهلتني بالأمس .
قال الطبيب المشهور :
- اعتقدت ذلك . كيف حالك يا فضيلة هانم ؟ ..
قلت : ما هذه الهانم التي ترددها ؟ ..
- احتراماً وإجلالاً لك .
- كلمني مثلما كنت تكلمني من قبل .
تجرأ وقال : أريد أن أراك .
سمحت له أن يقابلني في كازينو على أطراف النيل فـي الزمالك .وهناك صافحته لدقائق وقلبي يخفق بشدة ثم جلسـنا وهو يقول :
- لم أعرف فضلك إلا بعد أن تزوجت ؟ ..
-كيف ؟ ..
- لم أشعر أنني زوج إلا معك . أنت التي عرفتني معنى الأنثى .
- وماذا كنت أفعل ؟ .. كنت مجرد امرأة . كلنا إناث يـا عزيزي .
- لا .. لا .. هناك فرق . لقد شعرت بالحياة معك . أما مع نجمة الإغراء ، فلا إغراء ولا أنوثة ولا عذوبة .
- وماذا تريد مني الآن ؟ ..
- أن يعود كل منا للآخر .
حاول أن يضع يده في يدي ، غير أني سحبتها وقلت له :

- ليس من حقك أن تضع يدك في يدي . ولقـد انتهـى الماضي بكل آلامه وأفراحه .

راح يوضح لي قائلاً :

- أريدك على سنة الله ورسوله .

- أستتزوجني ؟ .. ولم لم تتزوجني من قبل ؟ ..

- كنت سادراً .. لا أدري أين مصلحتي ؟!..

- وهل ستطلق امرأة الأمس التي تزوجتها على سـنة الله ورسوله ؟ ..

- يمكن أن أجمع بينكما . ويمكن إذا رغبت أن أطلقها . لا تتصوري إن أيامك معي لا تُنسي . لا زلت أتذكر أيامنـا معاً . أسرح قليلاً في ذكراها يومياً .. دون كلل .

قلت بوضوح :

- أنا لن أفيدك . لن أكون فضيلة بنت الماضي . سـوف تجد امرأة أخرى . لن أتجاوب معك . لقد شعرت بـالبرودة تسري في أوصالي . شعرت أن فضيلة ماتت تماماً . وأن ما تكلمك الآن فضيلة أخرى .

- إذاً أنت تصرين على ألا يعود أحدنا للآخر ؟ ..

- إنني أشفق عليك من فضيلة الجديدة .

- أنت لا تدرين أن نجمة الإغراء خدعتني . إنها امرأة لا أنوثة فيها . امرأة متفرغة لأبنتها من زوجها الأول . امـرأة لا تريد أن أنجب منها ..

قاطعته قائلة :

- سأكون مثلها . وأنت أدرى بأنني عقيم . وسوف أكون متفرغة لمحلي . وقد فقدت أنوثتي الآن لـم أعـد صـالحة لرجل .

تركني الدكتور فوزي مغتاظاً ، لم يكن يصدق أن المـرأة التي منحها الكثير ، تأنف الآن أن تتزوجه ، ولم يكن السبب فيه ، إنما هو نابع منها . لكن لم يصـدق . لـم يصـدق أن عواطفي ماتت . وأن حبي لمحلي هو حبي الوحيـد . ولـو وجدت أسرتي فسوف يكون حبي لها مثل حبي لمحلي . ولقد كرهت الرجال جميعاً . لم يعد في إمكان رجل أن يستثيرني ، كأنما شبعت . أصابتني تخمة . ولم أعد أفكر في أكـل جديد . ولسوف يمتد ذلك إلى سنين . هكذا تنبأت وقت ذلـك الموقف .

دليلة

تعرفين أنت الموقف الذي سقط فيه . كان موقفـاً حرجـاً حينما جاء أبنائي يسألونني : أين آباؤنا ؟ .. ولم أكـن ذلـك المخمور الذي يطيح في الآخرين إذا كان السؤال لا يروقه . كنت لا أجرؤ أن أسأل أبي : أين أمي ؟ .. كان من الممكـن أن يهيج . يصفعني .. يركلني .. يطير كأس الشـراب فـي وجهي . عنيف حقاً . كنت أتحاشاه . أما أنا فلست عنيفـة ، ولو أني عصبية المزاج . وكانت تلك العصبية تتمخض عن صوت عال يختنق بعد قليل فيكف عن النباح . كنت أتلقـى السؤال منهم الواحد بعد الآخـر ، فتصـيبني الحيـرة . ولا أجيب . كانوا يعرفون أنهم أربعة من آباء مختلفين . في حين

أن مربيتهم أمينة كان كل أبنائها من أب واحد . مات في عز شبابه وتركها ترعاهم . فقدته وهي صغيرة لكنها لم تتزوج . ويستغربون في أنفسـهم كيـف تكـون الأم مزواجـة والأم الأخرى أرملة صغيرة لا تفكر في رجل . ولا يعرفون أنـه اختلاف طبائع البشر .

سألتني : ما المشكلة ؟ ..

قلت : المشكلة أنني لو عرفت كل ابن بأبيه أو بنت بأبيها فسوف يعرف الأبناء والبنات أنني على ذمة عدة رجال . أي أنني على ذمة ثلاثة رجال في وقت واحد فيمـا عـدا الأول لأنه مات ولو أني تزوجت آخر وهو لا يزال الزوج السابق حياً . وقد أتعرض لإبلاغ الشرطة بشأن جريمة اسمها تعـدد الأزواج ، وأكون في نظر أولادي مجرمة بل قـد يسـارع الرجال ويطلبون ضم أولادهم إليهم وبعد ذلـك يهجروننـي للأبد لصفاتي السيئة . ماذا أفعل يا فضيلة ؟

قلت وقتها : لنبدأ خطوة خطوة . من الـذي مـات مـن أولادك أبوه ؟

- إنه عاطف . وهو يعرف ذلك جيداً .

- ومن الذي لا يزال على قيد الحياة ؟ ..

- إنهم الثلاثة فارس وابنته عفاف . ومرسي وابنه جمال . وفهمي وابنته سوسن . قلت عليك بإعـداد ورقـة عـنهم الثلاثة . تكتبين فيها كل ما تعرفين عـنهم الآن . وسـوف أساعدك على إلغاء الجرائم دون أن يشعروا .

- كيف ؟ ..

- هذا عملي . ولا تناقشيني إلا بعد أن تـدركي أن كـل الجرائم قد زالت . واصبح عنقك بريئاً منها .

كانت إدارة أملاكي التي ورثتها عن أبي وأمـلاك ابنـي التي آلت إليه بعد وفاة أبيه ، قد عرفتني بأشخاص كثيـرين سواء في محافظة القاهرة والجيزة أو مجالس مدن في الوجه البحري حيث الأراضي الزراعية . فضلاً عن أشخاص فـي وزارة الداخلية . واتصلت بأحدهم أطلب منه تقريـراً عـن فارس . فحسب خطتك كان يجب أن نبدأ بالأقدم فالأحدث من الأزواج .وجاء التقرير واضحاً . تنازل فارس عن ثوريته ، واصبح سلبياً ، ولو أنه لا يزال علـى اتصـال بـالحزب الناصري المزعوم ، وهو حزب رفضته الحكومة بإباء . بل هو نفسه رفضه في بادئ أيامه . ويعمل ادي أحد المحاسبين القانونيين ممن كانوا لهم ضلع في المؤامرة المشهورة ضـد نظام الحكم .وقد برئت ساحته . ولما خرج فـارس مـن السجن ، ألتحق بالعمل لدى ذلك الرجل . ويبدو أن ذلك كان اعترافاً منه له بالجميل إذ ساند الثورة المضاد في محنتها .

فضيلة

لقد أخذت منك المعلومات عن فارس . وتحركت بسيارتي إلى مكتب المحاسب القانوني المعروف حيث يعمل فـارس . دخلت المكتب فوجدته رائعاً قد كلفه صـاحبه كلفـة تثيـر الإعجاب . المرايا في كل مكان تعطي للمكان بعداً جديـداً . المقاعد وثيرة . التحف تملأ الحوائط كأنها من صنع فنـانين عالميين .

قابلت صاحب مكتب المحاسبة ، ذلك الوزير السابق الذي ذكرته لي . كان وجهه أحمر كنجم سينمائي لم يجرد وجهـه من الألوان . ولو أني أرجعت ذلك إلى بياض وجهه الناصع أو إلى تجرع الخمر باسـتمرار . ناشـدته أن يكلـف أحـد المحاسبين بإعداد نظام محاسبي لمحلي المتواضع ، حتـى لا أكون في بؤرة نظر مصلحة الضرائب ، فيضع مفتشوها قيم الضرائب جزافاً . ووعدني خيراً . ولما كان فارس متميـزاً في المكتب ، لذلك طلبه بالهـاتف أن يوافيـه بالحضـور . وطلب منه أن يقوم معي ليرى المحـل ، ويضـع النظـام المحاسبي الأمثل له .

ركب بجانبي السيارة ، وأنا أشعر أنه يتأملني كثيراً . يبدو أنه بعد أن عاش معك قليلاً ، لم يتمكن من أن يذوق امـرأة بعدك . كان وجهه يوحي بالحرمان الطويل . سألته :

- هل أنت متزوج ؟ ..

قال : لا . أنا أعزب .

قلت أسخر منه :

- يا رجل . يبدو أنك لا تقول الحق . يبدو أنك عرفـت النساء من قبل .

ارتبك ثم أعترف قائلاً :

- نعم .. نعم .. كنت متزوجاً لكن زوجتي هربت مني .

- ما السبب ؟ ..

-لا أدري حتى الآن . فجأة اختفت من حياتي . هجرتني بلا سبب .

قلت أضحك :

- لابد أن هناك في طبعك ما يجعل النساء ينفرن منك .

- أبداً .. أبداً .. أنا رجل صالح .. ثوري كنت . لكن بعد الزواج التزمت جادة الصواب . حقاً بعد أن هجرتني عـدت للثورية من جديد لكن حصلت على جزائي سنين طويلة فـي السجن . لكن تبت الآن .. والله تبت .. عن السياسة .. وعن الاشتغال بها .. أو حتى التفكير فيها .

قلت مبتسمة :

- يبدو أن الجزاء كان قوياً ..

ابتسم وهو يقول :

- نعم .. نعم .. إن مجرد حرمان الإنسان مـن حريتـه جزاء قاس للغاية . إنني أصبحت أومن الآن أن بلاد العـالم الثالث لا يجوز فيها التطلـع إلـى المطالبـة بالحريـة وإلا أصبحت وبالاً على من يطالب بها .

ووصلنا إلى المحل . وصعدنا للدور الثاني . وطلبت من محاسب المحل أن يضع بين يـدي الأسـتاذ فـارس كـل المستندات الخاصة بالعمل . نظر إلى المستندات وقال :

- يبدو أنه سيكون أمامي عمل كثير .

- خذ راحتك . نحن لن نقفل المحل ..

- أقصد سوف يكون أمامي أيام ..

- تعال في أي وقت تشاء . وضع النظام المناسب وراقبه . ثم قيمه وعدله وأضف إليه كما تشاء ..

كنت لم أحصل على الإعدادية ، لكن خبرة التعامـل مـع الزبائن والعملاء ، وأصحاب المحلات في لبنان وأثينا وروما وباريس ولندن ، نمت مداركي . وعرفت أسـرار التجـارة وشعابها المرجانية . وكيف أتفادى الاصطدام بها . وكان يظن أن حسابات المحل غير منتظمة ، واسـتغرب أنهـا لا تحتاج إلى تنظيم وتعديل كبيرين . كان لا بد أن يدلي بـدلوه في أسلوب العمل وطريقة الحسابات ، وإلا فقد المكتب أجره على ذلك ، لكن كان لي هدف أن أبقيه أكبر فتـرة ممكنـة بجانبي . نتكلم .. نتكلم .. ونتكلم .

ولما انتهى من واجب اليوم الأول ، طلبت منه أن يتغدى على حسابي الخاص . قلت :

- ما دمت أعزب .. أو مهجور الزوج .. فلن تتردد فـي قبول دعوتي .

وعلى مائدة الطعام في الشيراتون أفاض فـارس فيـك ، وصف دليلة الحبيبة التي هجرته . وعلل هجرانك لـه بـأن

جنوناً مفاجئاً اجتاحك . ولو أن عقلك رد إليك لكنت قد عدت إليه . لكنك لم تعودي . وقد يكون سجنه حال بينـك وبـين العودة إلى أحضانه . فمن أين لك أن تعرفـي مكانـه بعـد السجن . بل لعلك لم تعرفي أن حكماً صدر ضده في ثـورة ١٩٧١ المزعومة . المهم أن المعتقل - أو السجن - حـال بينك وبينه . بل لو لم يكن قد سجن فلن يتسنى لك أن تعرفي عنوانه ، لذلك فُقد انقطع الاتصال بينكما . وفقدك إلى الأبد . كان يفترض أن الحكم بالسجن الذي صدر ضده وآخـرين هو حكم بالاعتقال . كان الرئيس يريد أن يبعده والآخـرين عن ساحة السياسة والتدخل فيها حتى تموت المعارضة ضده ، فتم تلفيق الاتهام لهم . وإذا كـان الكبـار ضـالعين فـي المؤامرة فما ذنب الصغار - أمثاله- إنهم يأتمرون بـأوامر الكبار . استمر فارس يعمل في تنظيم حسـابات المحـل . واستمرت علاقتي به . جاءت العلاقة سهلة ميسورة . غداء بالصدفة . عشاء بالصدفة . دعوة للسهرة في بيتي بالصدفة . لم يكن مدعوا غير الفتيان والفتيات الذين يسـافرون لشـراء البضاعة من الأسواق العالمية ويعودون بها ليـزودوا بهـا محلي . وكانوا يدفعون الجمارك . لا تهريب عندي . وقـد يفلتون ببعض الملابس . وتقيد على أنها متعلقاتهم الشخصية . وقد لا يفلتون . ويعتبر رجال الجمـارك أنهـا بضـاعة تستوجب دفع رسوم جمركية عليها ، فيدفع الشاب أو الشابة وأحاسبه عليها فيما بعد . لا أهمية للجمارك فإن قيمتها تحمل

على البضاعة في محلي . ويتحمل المستهلك كل النفقات حتى تذاكر السفر ويدفعون ولا يتذمرون .

ولما انتهت السهرة انصرف الجميع . وبدا فارس يتشجع . وتقدم مني وسألني :

- هل تتفضلي بالزواج مني ؟

سكت . ثم سأل : ما المانع ؟ ..

قلت بهدوء : هناك مانع واحد . أنك متزوج .

قال : ولكن الزوجة لا تعيش معي . هجرتني .

قلت : يبدو أنك كنت متيماً بها . فـإذا ظهـرت ونحـن متزوجان ، فسوف تلفظني وتعود إليها .

- ذلك كان منذ سنوات بعيدة ، فكيف أعود إليها ؟ ..

- ألا تعرف المثل الذي يقول القديمة تحلو ولو كانت في الوحل .

- إذاً ماذا تريدين من شروط ؟

- أولاً طلقها . وأرى وثيقة الطلاق بعيني . وانتظر حتى يصبح الطلاق لا رجعة فيه .

اضطرب فارس . يبدو أن هناك أملاً دفيناً كان يداعبه أن يلتقي بك من جديد . لكنه وأد هـذا الأمـل . وذهـب إلـى المأذون وبيده وثيقة الزواج ، وطلق دليلـة وأرسـل ورقـة الطلاق على شقتها في ذلك البرج الذي عاش فيه معاً . وعاد إلي بوثيقة النصر .

لم أكن أقوى أن أتزوج من فارس ، لذلك لم أعترف لـه بشيء . كان الهدف هو أن احصل علـى وثيقـة الطـلاق

لأعطيها لك كهدية ، ولو أنها وصلتك عن طريق البـواب . فالبرج خاص بك وهو يتسلم ما يخص صاحبته . ويبـدو أن فارس لم يجر وراء معرفة مـا إذا كانـت وثيقـة الطـلاق وصلتك أم ارتدت إلى المأذون مرة أخرى . فقد كان يعرف أنك استأجرت الشقة مفروشة وأنك تركتها كما قال له البواب وكما قلت لي إنك لقنت البواب بذلك ، لكنـه إجـراء لابـد منه .

انتظرت ثلاثة شهور حتى يصير الطلاق تاماً ، فقد كـان الطلاق رجعياً . يمكن إذا ظهرت أن يعيدك إلى عصـمته ، خاصة إذا عرف أن له ابنة منك تدعي عفاف . ولما انتهـت الأشهر الثلاثة حملت إليك الوثيقة في قصرك المنيف . ذلـك الذي يقع بين أبراج متعددة صامداً لا يقوى أحد على هدمه . وقلت لك كما يقول أنور وجدي في فيلم أمير الانتقام :

- الأول .

وقد دفعت الوثيقة بيدي بقوة كأنها الخنجر الذي يمسـكه بطل الفيلم . وفوجئت أنك تعرفين أن الطلاق قد تم . لقد سلم البواب الوثيقة لك .

دعوت فارس على الغداء في شقتي بالـدقي . لا زلـت أحتفظ بها ولم يطالبني الدكتور فوزي بثمنها بعد أن رفضته زوجاً . وكان فارس لا يجرؤ أن يطلب الاقتران بـي ، لأن من شروطي أن يكون الطلاق لا رجعة فيه . وبعد انقضـاء عدتك كان ذلك الغداء . وكانت علاقات العمل قـد انتهـت بتنظيم حسابات المحل وحسـابات الضـرائب والجمـارك .

وجاء وفي رأسه فكرة هو أنني سألبي النداء وأوافـق علـى الزواج . كانت المماطلة بسبب أننـي أريـد أن أفهمـه وأن يفهمني . أن أعرفه عن قرب ويعرفني عن كثب . لم يتجرأ يوماً أن يمسك يدي أو يحاول أن يغتصب قبلة . واحترمتـه بالفعل . كان مثال الرجل الوقور المحترم . ولم أحـاول أن أضمه إلى أو أطبع قبلة على خده عند اللقاء أو احتك بـه . كان الجنس قد مات في صدري ، وحفرت له قبراً ، وداريته فيه دون كفن . مات بارداً ضعيفاً هزيلاً .

في ذلك اليوم قال لي :

- هل أطمع اليوم في أن تقبلي الزواج مني ؟ ..

وما كدت أتكلم معه ، حتى رن الجرس . وجـاء الخـادم تقول : السيدة دليلة وابنتها يا سيدتي .

ذُهل فارس من عبارة الخادم . قلت لها : دعيهما يدخلان ، فالأستاذ فارس ليس غريباً .

لعله في ذلك الوقت كان يتساءل : هل هي دليلة مطلقتـي أم امرأة أخرى اسمها دليلة .

دخلت أنت وعفاف إلى حجرة الاستقبال .

ترددت دليلة في الدخول حينما رأت فـارس . وارتبـك فارس حينما شاهدها . إنها الزوجة الهاربة . كنت تعـرفين أنك ستجدينه عندي ، وسيشاهد ابنتك عفاف معك . وستقولين لها حتى تهدأ : هذا هـو أبـوك يـا عفـاف . صـافحته وصافحتني . وكذلك قامت عفاف بالمصافحة . وجلسنا جميعاً وقلت أعرفك به :

- هذا الأستاذ فارس المحاسب القـانوني للمحـل الـذي أملكه .

قالت دليلة : تشرفنا .

اصطنعت أنك لا تعرفينه في البداية . قال يذكرك بنفسه :

- ألا تذكريني يا دليلة هانم .

قلت : أذكرك جيداً . ولكن استغربت أنـك تجـاهلتني . سألت فارس : أتعرف السيدة دليلة ؟ ..

قال فارس : نعم .. هي السيدة التي كلمتك عنها ؟ ..

قلت باستغراب : معقول ؟ .. يا للصدفة !! ..

توجهت دليلة إلى عفاف وهي تقول لها :

- كنت يا عفاف قد سألتني : أين أبـوك ؟ .. هـذا هـو أبوك ! ..

نهض فارس مفزوعاً وهو يقول : ابنتي .. هذه ابنتي ؟ ..

قلت : من لحمك ودمك .

سألك : وأين كنت طوال ست عشـرة سـنة ؟ .. ولـم أخفيتها .

قلت وأنت تضبطين أعصـابك : ظـروف .. ظـروف مرضية حالت دون إطلاعك على الحقيقة . ثم أنا لا أعـرف لك عنواناً .

لم تكذبي فإن مرضك النفسي .. يدفعك إلى الفـرار مـن زوجك حينما تشعرين بتحرك النطفة في أعماقك . ولم يكـن قد عرفك بأهله أو سكنهم حتى يمكنك الاتصال بهم أو به .

وقفت عفاف تستقبل أباها . ضمها إليه والدهشة تعتصره ، وهو يقول : لا أصدق .. لا أصدق . أن لـي ابنـة بهـذا الطول وبهذا الجمال ..

ولما انتهى لقاء الأب بابنته . مضينا إلى حفلة الغداء . لم يكن بها غيرنا . وتكلمنا كثيراً عما يخص عفاف . تعليمها .. عاداتها غرامها بالقراءة . بنت نجيبة . تتعلم في المـدارس الفرنسية . متقدمة في دراستها . وعلاماتها لا تقل عن جيـد جداً . وأن من المنتظر أن تدرس العلوم الهندسية ، فهـي بارعة في الرياضيات . وكان فارس مشدوهاً بابنته فخـوراً بها . مثلما جئت انسحبت . انسحبت دون أن يعرف فـارس أين تسكنين . وأين تقيم ابنته . وهل ستكون تحت ولايته . وأن تقيم معه أم ستبقى معك أنت الحاضنة .

سألني بعد أن غادرتما الشقة :

- ماذا عن مشروعنا ؟ ..
- أي مشروع ؟ ..
- مشروع الزواج ..
- اعتقد أن عليك أن تسعى إلى العودة إلـى زوجـك .. أقصد مطلقتك خاصة أن لك ابنة منها .

-كيف أعود وأنا لا أعرف عنهما شيئاً . ولا أعـرف إذا كانت دليلة ستقبلني من جديد أم لن تقبلني .

- ناقشها في كل ذلك .
- وأين تقيمان .

- أنا لا أعرف لأنها تزورني في محلي .. وفي بيتي ولا أجد وقتاً لأزورها في بيتها . نادراً ما أزور أحداً .

دليلة

لا تتصوري كم كان قلبي يتهدج وأنا صاعدة إليك ، حتى أن عفاف سألتني : مالك يا ماما ؟ .. قلت لها : لا شـيء . ضربات قلبي تتزايد . لا أعرف السبب . ولعلها عرفته لمـا دخلنا إلى شقتك . أدركت أن أمها تحدس جيداً . وأحسـت بأنها ستلتقي بشخص هام لديها ، لذلك أسرعت دقات قلبها . ولم تكن تعرف أنني كنت مبيتة النية بينك وبيني أن تلتقي البنت بفارس أبيها في شقتك . كانت لا تزال العقدة تسـيطر على . ألا وهي إخفاء الابن أو البنت عـن أبيـه حتـى لا يخطفه مني ويحرمني منه إلى الأبد مثلما فعل أبي معي ومع أمي . وحرمني منها ولا أمل في أن أراها . لقد تعمـدت أن أذيقه من رحيق ابنته . وحرمته مـن أن يعـرف مكانهـا . وهكذا اتفقت معك ألا تبلغيه بـه إلا بعـد أن ننتهـي مـن الآخرين .

لكن في هذه الأثناء ظهرت أمامي حالة جعلتنـي أشـعر بالهوس . جاء ابني عاطف يسألني مبلغاً كبيراً من المال . لم ؟ .. لا يجيب إنما يصر على طلبـه دون إبـداء أسـباب . صديقه محسن ابن أمينة ، ذلك الذي تربى فـي قصـري ، وترعرع ، وأدخلته نفس المدرسة التي دخلها ، لـم أتركـه للتعليم المجاني ، ذلك الصديق رفض أن يذيع سر صـديقه .

سألته : لم يريد عاطف ذلك المبلغ الكبيـر ؟ .. أجـاب : لا أعرف .

وعاد من جديد يطالبني بالمبلغ . قال بجرأة لـم أعهـدها فيه :

- أنا لا أطالب أن تهبيني من نقودك . إنمـا أطالـب أن تعطيني من نقودي .. نقودي التي تركها أبي .

قلت له : هذه الأموال التي تركها أبوك تخضع لمراقبـة المجلس الحسبي . وما تطلبه يفوق المصرح به .

التفت إليه وسألته :

- هل أنت مدمن ؟ ..

ذلك هو الداء الذي اصبح معروفاً للجميع خاصة بين أبناء الأغنياء . وتدخلت أمينة وكانت حاضرة الحديث قائلة :

- ابني لا يمكن أن يقترف تلك الموبقة ! ..

استدرت لها غاضبة . إنها تريد أن تستولي علـى أولادي مثلما استولي أبي على .وحرمني من أمي . وها هي امـرأة من عامة الشعب تريد أن تحرمني مـن أبنـائي . غضـبت واستغربت غضبي وتماديت في غضبي . كانت كثيـراً مـا تقول أمامي : أبنائي . وتقصد بها أولادي . ولم أكن أعيرها التفاتاً . لكن مقابلة فارس الأخيرة جعلتني أتوجس خطـراً . إنه قد يطالب بالوصاية على ابنته عفاف ويأخذها مني . وقد انتهت فترة الحضانة . وها هي امرأة تريد أن تأخـذ منـي أولادي . قلت لها :

- هؤلاء أولادي . ليس لك أولاد هنا إلا أربعة آخرين . وأنا أسأله فلا تجيبي أنت عنه . إنه ذو لسان وادي ـه س ـمع وعليه أن يجيب .

وطأطأت أمينة رأسها ، كأنما تعرف الداء النفسي ال ـذي يلازمني . وفي ذلك الوقت رفض عاطف الإفص ـاح ع ـن السبب . وانتحت أمينة جانباً بمحسن ، فلم يج ـد ب ـداً م ـن الاعتراف . أمينة تعرف عمق الصداقة بين عاطف ومحسن . يذهبان معاً إلى المدرسة الإنجليزية . يقضيان الوقت ف ـي الدراسة . يعودان معاً بل يأكلان معاً . ويستذكران الدروس معاً كأنهما شخص واحد مزدوج الشخص ـية . أو شخص ـية واحدة ذات جسدين . وكان يختلفان فقط في ح ـب ع ـاطف للأدب والقراءة المتعمقة . وحب محسن للموس ـيقى والف ـن عموماً خاصة التمثيل . استطاعت أمينة أن تجع ـل محس ـن يعترف . إنهما أحبا معاً أيضاً أختين . أحب محسن الكبي ـرة وأحب عاطف الصغيرة . وأصبحوا يلتقون في يوم العطل ـة الأسبوعية . يتنزهان في الحدائق العامة .. في نهر النيل .. في الهرم . والفتاتان ابنتا رجل فقير معدم . لذلك كان م ـن الغباء إعلان حبهما . لأنهما يعرفان أنني لن أرض ـى عن ـه خاصة بالنسبة لعاطف . وكانت الفتاتان لا زلتا تتعلمان حينما اصطدم أبوهما بسيارة ففقد النطق ثم فقد الحياة . ولم يحصلا من سائق السيارة على تعويض بسبب أن الخطأ ك ـان ف ـي جانب الأب . وهكذا كان على عاطف - وهو الثري - أن يقف موقف شهامة من هذه العائل ـة المنكوب ـة . أراد أن

يمدهما بمال وفير حتى لا يشعرا بوطأة الصدقة في كل شهر إنما على الأقل كل سنة .

جاءت أمينة تهمس لي بالقصة . وكان الغضب لا يـزال يجتاحني كأنه عاصفة هوجـاء . وازدادت سـرعة ريـاح الغضب في داخلي .ونظراً لضيق المكان فقد تحولت الرياح إلى دوامة . سألتها : من قال لك تلك القصـة ؟ .. أجابـت وهي لا تزال تهمس تريد أن تمتص غضبي : ابني محسن . إنه يحب البنت الكبرى . صرخت قائلة : حب .. حب .. لا يوجد شيء اسمه الحب . إنها مصالح . إن الفتاتين تريـدان أن تبتزاه . قالت أمينة بضعف : إنهما لا تعرفان أن السـيد عاطف ابنك (وضغطت على الكلمة الأخيرة) ثري . وهـو لم يعلن فتاته بذلك كما لم يعلنها أنه يريد أن يهبها مالاً .

انزاح الغضب قليلاً . قلت سـرعة الريـاح . وانطفـأت الدوامة . وشعرت أن أمينة خير مرشد لي . سألتها : وما العمل الآن يا أمينة ؟ .. قالـت : فهمـت أن الفتـاتين فـي المدارس الثانوية . ويمكن لو أحسنت إليهما دون أن يـدري عاطف بإحسانك أن تجعلاهمـا يسـتكملان تعليمهمـا وأن تتصدقي على الأسرة دون أن تشعر .

ونهضت من فراشي مفزوعة وقلت لها : إذاً تريدينني أن أعاونهما حتى يتخرجا من الجامعة . ويتقدم عاطف ليناسـب هذه الطبقة الدنيا . إذا كنت لا تمانعين أن يناسب ابنك هـذه العائلة الفقيرة فأنا لدي ألف مانع بالنسبة لأبني . قالت أمينـة بخضوع : أمرك .. ولو أني كنت أسمعك تسألين عن أماكن

الفقراء لتتصدقي عليهم بمالك رغم أنك غمرتنـي بعطفـك وكرمك وحنانك أنا وأولادي طوال هذه السنين . وكان ذلـك كافياً . كان يكفي ما تتصدقين به علينا . لكنك كنت تبحثـين عن هؤلاء الناس ، لتصنعي فيهم المعروف .

ذهبت وجئت داخل الحجرة كلبؤة تبحث عن حل للفهـود الصغيرة التي ضعف أسدهم الأب وانزوى واضمحل . ثـم سألتها : أتني بعنوان الفتاتين .

تركت السيارة عند طرف بولاق ، لأبحث عن منزل هذه الأسرة المنكوبة . كيف تعرف عاطف على هذا الوسـط .. ومتى ؟ .. أقاده ابن أمينة إلى ذلك الحي . نعم هو الذي قاده ، فالوسط الوضيع يحن إلى الوسـط الوضـيع . وكيـف لا تقولين يا دليلة أنه مثلك . فأنت كنت تعشقين فهمي والد ابنتك سوسن وهو متخف في صورة ساع في الشركة . لكنه كـان نظيفاً راقياً . لم آخذ الفتاتين بجريرة أبيهما . وهـل الفقـر جريرة يا دليلة هانم ؟ .. إنه ليس عيباً . وإذا انتشلت الفتاتين من بئر العوز العميقة ، فقد أنقذتهما من مصير مظلم . وخير ما يتصدق به الإنسان أن يعلـم الآخـرين أو ينفـق علـى تعليمهم .

كنت قد عرفت من أمينة أن الرجل كان يعمل في شـركة بعيدة عن بولاق ، وكان يعمل عملاً كتابياً . كان نصف وقت اليقظة يضيع في المواصـلات بـين القليوبيـة وبـولاق . والنصف الآخر في العمل . ثم يخلد إلى النوم زهاء ثمانيـة ساعات . فلم يكن لديه وقت لمراقبة ابنتيـه وتصـرفاتهما .

اخترعت أنني زميلة له في العمل . أشرف علـى صـندوق اسمه صندوق الزمالة ، يقوم بـدفع مبـالغ دوريـة لورثـة المصابين أو المتوفين في حوادث خارج العمل . علـى أن يدفع المشترك قسطاً شهرياً لا يرد . اندهشت الأم مما أقول . وقالت : لم يقل لي عبد الصمد ذلك أبداً . قلت : حقاً .. لكنه اشترك اشتراكاً واحداً واستحق بذلك أن يعاونه الصـندوق . دفعت للمرأة مبلغاً ووعدتها أن يصلها ذلك المبلغ كل شهر . طلبت منها أن تكتب لي عنوانها واسمها بالكامل حتى أرسل لها المبلغ شهرياً . خجلت من نفسها وأجابت أنها لا تعـرف القراءة والكتابة . وأن على أن أنتظر حتـى تـأتي ابنتاهـا فتكتبان العنوان . وكانت لا تدري أين تسكن وما هو عنوان ورقم بيتها بالضبط .

لا أدري هل عرف عاطف الحقيقـة . فقـد كـف عـن المطالبة بذلك المبلغ الكبير . ولعل محسن أقنعـه أن يـدفع لفتاته مبلغاً شهرياً بدلاً من المبلغ الكبير الذي طلبـه منـي . حتى يتحرر من سطوتي . ويتقدم ليتزوجها يسنده المال مـن ناحية وتسنده الشهادة من ناحية أخرى . لقد قالت لي أمينـة أن الولدين متيمان بالفتاتين وأن ليس من السـهل أن يقتنعـا بالابتعاد عنهما .

رن جرس الهاتف في قصري ، بينما كنت أتناول الشاي . وكانت تقف على مقربة مني أمينة رهن إشارتي . كنت قـد ارتحت نفسياً حينما بدأت أتصدق على المرأة الفقيرة وابنتيها . ورأيت البسمة تعود إلى وجه ابني . وعـاد مـن جديـد

يستذكر دروسه في السنة النهائيـة مـن الدراسـة الثانويـة الإنجليزية . وكنت قد استلمت العنوان من المرأة في اليـوم التالي تفادياً لرؤية الفتاتين . وصرت أرسـل لهـا الحوالـة الشهرية على ذلك العنوان تفادياً لرؤيتها وحتى لا يشـعرن بوقع الصدقة الأليم .

قال المتكلم : أهلاً .. كيف حالك ؟ ..

- من المتكلم ؟

- أنا فارس زوجك يا مدام دليلة .

- لا .. لست زوجي .. لقد طلقتني . ولدي الوثيقة الدالة على طلاقي .

- كيف وصلتك ؟

- أرسلها المأذون إلي على عنواني في البـرج . ولمـا كان البواب يعرف مكاني فقد استلمها وسلمها لي .

- ولكنه لم يقل لي أنه يعرف مكانك ؟ ..

- أنا نبهت عليه ألا يقول عن مكاني لأحد .

- أريد أن نعود إلى بعضنا البعض .

- لا .. لا .. لقد انتهى ذلك الزمن ولا رجعة له .

- إذاً أريد أن أرى ابنتي .

شعرت بهزة تعتريني وأنا أقول له :

- تفضل .. شاهدها وقتما تشاء . هل تعرف البيت ؟ ..

- تقصدين .. هل أعرف القصر ؟ ..

شعرت أنه كان يراقبني . قلت :

- أنت تعرف كل شيء .

- نعم . لقد تأكدت أنك صديقة فضيلة . ورأيتـك يومـاً تخرجين من محلها في الزمالك . ولحظي السعيد كنت تمشين على قدميك . حقاً المسافة بين وسط الزمالك وطرفها طويلة . ولكن على ما يبدو كنت تستمتعين بالمشي الطويل . عرفت مكان قصرك . وعرفت من صاحب القصـر . غريـب أن يبقي اسم صاحب الهاتف حتى الآن رغم أنه متوفى . أكـان ذلك الرجل زوجك .

- نعم .. أنا لم اكذب عليك . لقد تزوجتني وأنت تعـرف أنني مطلقة . وما لم تعرفه أن الرجل مات وآلت إلى ابنـي منه كل ثروته وأقمنا لذلك في قصره .

- أنت الآن غير متزوجة فما رأيك لو عادت المياه إلـى مجاريها إلا إذا كنت متزوجة من آخر .

- لا .. لا .. أنا الآن مطلقة .. مطلقة بعد ست عشـرة سنة زواج على الورق .. طلقني من أجل امرأة . طلقتني من أجل أن تتزوج من فضيلة .

- أكاد أشم رائحة مؤامرة في الموضوع .

- أي موضوع ؟ ..

- طلاقي منك وارتباطي بفضيلة ..

- ها هي عندك .. تزوجها إذا أردت أنا لا أحجر عليـك ولا عليها .

- ترفض الزواج لأن لي ابنة منك .

- ولم ترفض ؟ .. البنت معي ولن تضايقها في شيء .

- هكذا هي ترى . هذه أسبابها ، فلم لا يعود كل منا إلى الآخر .
- أنا متفرغة الآن لتربية ولدي وابنتي .
- وما رأيك لو أنني ضممت ابنتي إليّ ؟ ..

فضيلة

أعتقد أنني بلغت مرقاً مليئاً بالصخور والأحجار . إن مطالبة فارس في اعتقادي جاءت مبكرة . حركت فيك العقدة القديمة أن تؤخذ أولادك منك عنوة ولا تريهم أبداً . بل إن رؤية فارس لأبنته كانت مبكرة أيضاً . كان علينا أن نبقى حتى تنتهي من كل الأزواج وبعد ذلك نعرض بضاعتنا عليهم . أولادك منهم بطبيعة الحال .

حينما طلبتني في المحل وأخبرتني أن أعود إلى فارس ، حتى ينشغل بي عن المطالبة بابنته منك . لكنني قلت لك : لا أريد أن اخدع الرجل مرتين . إن ما استشفه من كلامك إن الرجل شم رائحة المؤامرة التي دبرناها معاً . وعلى العموم لم لا تتظاهرين أنك موافقة على العودة زوجين فينشغل بذلك الأمر عن المطالبة بضم ابنته إليه . والآن آتيتي ببيانات الرجل الثاني الذي تزوجته . قلت لي : إن البيانات جاهزة وما عليك إلا أن تأتي لأخذها .

كان عنوان السكن موجوداً في حي السكاكيني . وعنوان الشركة التي يعمل بها متاحاً في وسط المدينة . ذهبت إلى الشركة . كنت أعرف أنه مهندس إنشاءات وأنه يصمم وينفذ بناء المساكن بالشركة . كنت أريد أن أتفق معه على أن يبني

لي فيللا في ٦ أكتوبر حيث أريد أن أشتري الأرض ثم ابني عليها . حيث الهواء العليل والبعد عن التلوث . حيث الجنـة البعيدة عن زحام القاهرة . وإذا سألني من الذي دلني عليه . سأقول هذا سر وعدت من دلني ألا أبوح به .

سألت عن المهندس مرسي في الشركة ، فلم يدلني أحـد ذهبت إلى رئيس شئون العاملين . قال لي بالحرف الواحد : المهندس مرسي في مصحة عقلية منذ اثنتي عشـرة سـنة . لديه اكتئاب نفسي لا يفارقه . سألت : وما سببه ؟ .. همـس لي قائلاً : يوم غادرته امرأته كانت تعمل معنا هنا وتفرغت لحياتها الزوجية ثم هجرته . ولما هجرته لـم تعـد إليـه . اضطربت حياته ونُقل إلى المستشفى ولا يزال فيهـا حتـى اليوم ويتقاضى أجره كاملاً طبقاً للقانون بشـأن الأمـراض المزمنة .

لم استوعب الموقف بالضبط . أمعقول أن يصاب إنسـان بالاكتئاب لمجرد أن امرأته تركته . لقد حطمت قلبه يا دليلة . لا أدري من قال لك إن كل الآباء مثـل أبيـك يسـرقون أطفالهم من زوجاتهم ويهربون منها . أبوك يا دليلة كان شاذاً . وقد صنع منك أيضا امرأة شاذة .

لا تتصوري شكله وهيئته وقوامه يوم ذهبـت إليـه فـي المستشفى . قلت للطبيب المختص أنني قريبة له من بعيـد . ضايقنا اختفاءه وعرفنا انه يعالج في هـذا المستشـفى . إن راتبه الذي قرره القانون لا يزال يتقاضاه حتى تستقر حالتـه هو الذي ساعده في استمرار العلاج رغم لا شفاء منه . يبدو

أنه ولد وحيداً وأن موت أمه شرخ روحه شرخين . وكبـر الشرخ بوفاة أبيه . لكن زواجه رمم الشرخ في قلبه واصـبح غير ظاهر . وهجر زوجته إياه فتت قلبه من الداخل حتـى اصبح من المستحيل أن يلملم من جديد .

دخلت عليه رأيت شبحاً . لم أصدق أن هذا الرجـل هـو الذي كلمتني عنه . غائر العينين . وحول عينيـه سـحابات سوداء . خداه ضامران . يبدو الأرق واضحاً فـي احمـرار عينيه . كأن عقله ثبت على سؤال واحد لا يجد له جواباً : لم هجرتني ؟ ! ..

قلت له بجرأة :

- أيفعل المهندس المرموق ذلك في نفسه ؟ ..

سألني باستغراب :

- من أنت ؟ ..
- أنا واحدة من زميلاتك في العمل .
- وماذا تريدين ؟ ..
- أريد أن اطمئن على حالك .
- وهل رأيت حالي ؟ ..
- يصعب على الكافر .
- أمض .. أمض ..
- يا رجل . أمن أجل امرأة تهون نفسـك عليـك هـذا الهوان .
- امرأة .. أي امرأة ؟

- دليلة شكري .. هل نسيتها ؟ .. وهل لو نسيتها يكـون ذاك حالك ؟ ..

- كيف عرفت ؟ ..

- حكايتك معروفة . لكن لا أعتقد أن من أجـل امـرأة تهون النفس بهذه الدرجة .

أسهم طويلاً . ووجدت أنني لو تقربت إليه على أن فـي قلبي حباً يخفق ، وتعلق بي ، وهجرته مثلك فسوف يـتحطم في هذه الحالة ، وقد ينتحر ، لذلك قلت له :

- أنظر إلى . إنني أصبحت أكره الرجال . لا . بـل لا أهتم بهم . لقد ظلموني وداسوا على كرامتي . لكني لم أفقد إيماني بالله . ولم أجعل إيماني بنفسي يتسرب . ماذا سيفعل لي رجل .. وماذا ستفعل لك امرأة ؟ ..لـو كنـت مكانـك لطلقتها . وانطلقت أعب من متع الحياة . فليس النساء متـاع الدنيا . هناك متع أخرى غيرهن .

خرجت من عنده بعد حديث طويل استغرق ساعات . لـم أعد اذكر منه شيئاً كنت كشيخ معمم ينصح إنساناً . لا أعرف كيف أقنعته أن يلقي الماضي خلفه ويهتم بالمستقبل . لدرجة أنني سألت طبيبه في اليوم التالي . قال لي إنه نام نوماً عميقاً في اليوم الماضي ، ولم يقبل من الممرضة أن تعطيه حبـة مهدئة حتى يستغرق في النوم .

لما دخلت عليه مرة أخرى . رأيت وجهه الشاحب باسـماً . رأيت السحاب الأسود قد انقشع من حول عينيه . ترك أثراً

بسيطا حول الجفون . ورأيت لحيته التي كان لا يحلقهـا إلا قليلاً قد أزيلت . وأن شاربه الكث قد تم تهذيبه .

سألني : من أين أتيت ؟ ..

قلت مازحة : من السماء . أرسلني ربي لأنقذ إنساناً مـن الهلاك والحمد لله أنه وفقني .

قال وهو يدنو مني : لا تتركيني .

أشرت إليه قائلة : لا .. سوف أتركـك حالمـا تنتهـي مهمتي ، فلا تظن أنني مغرمة بك . أو أننـي أهـواك . ولا يجوز لك أن تتعلق بي فإذا اختفيت من حياتك تعود من جديد تهوى . تسقط على عنقك فتهشم .

ضحك وهو يقول : لا .. لا .. هذا لن يحدث .

قلت : أعتقد أن أول خطوة تخطوها أن تعود إلى بيتك .

- وهل لي بيت ؟ ..

- ألا يوجد لك بيت في حي السكاكيني .

استغرب وهو يسألني : كيف عرفت ؟ .

- لقد تكفل المستشـفي هنـا بالمحافظـة علـى شـقتك بالسكاكيني . وقد طلب منها ذلك رئـيس شـئون العـاملين بالشركة التي تعمل بها . - أمعقول .. هذه المدة كلهـا ولا يزالون يحتفظون لي بشقتي ؟ ..

- ماذا يضير صاحب العمارة ما دام يقبض الإيجار حتى من غيرك فلن يقبض غيره .

- عظيم .

- الخطوة الثانية أن تطلق تلك التي هجرتـك . وكانـت السبب في اكتئابك الذي لولا أن الطبيب حوله إلى جنون لما تمكنت من استمرارك في صرف مرتبك بالكامل حتى الآن .

- أنت تقولين حقائق لا أعرفها .

- وذلك حتى تعرف أن الناس بخير وأنهم لم يتركوك في محنتك وحدك .

- والخطوة الثالثة ؟ ..

- أن تعود إلى عملك .

- كم مضى على في هذا المكان ؟ ..

- تقصد في هذا المستشفى . مضى عليك أثنتا عشرة سنة .

كان واقفاً يكلمني . وسقط على سريره منزعجاً :

- اثنتا عشرة سنة . هذا عمر طويل .

- ضيعته بسبب تافه . هجر امرأة لا قلب لها .

كنت أريد أن يكرهك حتى لا يعود يتطلع إلى رؤياك من جديد . ويصدر وثيقة الطلاق .

الغريب أنه زهق طويلاً من الرقاد الدائم في سرير واحد ، وهو المهندس النشط الذي لا يهدأ ، لذلك قرر أن يتخطـى وضعه القديم ، وما صدق أن دخلت عليه حتى انتشل نفسـه من بحر الماضي الغريق الغليظ حتى يصـل إلـى شـاطئ الأمان متعلقاً بهذا الملاك وتعليماته .

لعله الآن لن يصدق أن هناك امرأة أخذت بيده . يتصور أنه صنع هذه المرأة من خياله . وأنه انتشل نفسه من البئـر

السحيقة في البحر الغريق . وأنه عاد إلى بيته بإرادة منـه . وعاد يمارس عمله بعد فترة تدريب . كل ذلك بـوحي مـن نفسه . وليس لهذه المرأة أي وجود . فكيف إذاً تظهر فجـأة وتختفي فجأة ؟ ! ..

دليلة

فرحت جداً وأنت تسلميني ورقة الطلاق الثانية ، وبذلك لم أعد أتعرض لأي مساءلة ، فلن يفكر الرجل الذي طلق لـو عرف أنني كنت قد تزوجت عليه أن يبلغ رجـال الشـرطة بجريمة تعدد الأزواج . أتذكر أنك قلت لي إن مرسي دخـل على المأذون واثقاً من نفسه ، وحرر وثيقـة الطـلاق مـن نسختين وأعطاك نسخة منها بعد أيام . وظن المـأذون أنـك المطلقة . ولم يطلب منك التوقيع بالعلم . ولذلك لم يسـتغرب فيما بعد أن يسلمك مرسي نسخة . كان مرسي يريد أن يؤكد لك فعلاً أنه طلق فعلاً تلك المرأة التي عذبته . وشكرك جداً حينما قمت بإزالة التراب من بيته . وكان مقبرة للصراصير والفئران التي حبست فيه جبراً ، ولم تجد قوت يومها فنفقت . وبعد أن أنهيت مهمتك معه اختفيت من حياته . ويبدو أنـه لم يسقط مرة أخرى نهباً للاكتئاب لأنه لم يتعلق بـك . ولـم يرتبط . وأنت أفهمته منذ البداية أن لا يربط بينك وبين حياته وأنك تكرهين الرجال مثلما عليه أن يكره النساء .

اتفقنا ألا نعرفه بابنه جمال إلا بعد أن يوقع فهمـي والـد سوسن الوثيقة الأخيرة وأتحرر بعد ذلك من الرجال . وحتى أحمي عفاف من والدها ، قررت أن نعود جميعاً إلى مقـري

بالهرم . وكانت العائلة التي تسكنه قد تركته واصبح خاوياً . وعارض الأولاد .. كـل الأولاد . أولادي وأولاد أمينـة . وعارض الأولاد جهراً لأن كل مدارسهم قريبة مـن قصـر الزمالك . وعارض أولاد أمينة سراً وعضـدوا أولادي بـلا علانية . لأنهم يعرفون أنني صاحبة الأمر والنهي في القصر . لكني رفضت كل الاعتراضات خاصة تلك التي تصدر من عاطف . كان يعترض لأن المسافة سوف تتباعد بينه وبـين حبيبة القلب . وبدلاً من أن يراها وهو يركب سيارته خـلال دقائق ، قد تستغرق منه المسافة ساعة بسبب الزحـام الـذي يتراكم ولا ينقشع كسحاب الشتاء .

ظننت بالفعل أن البعد سوف يصيب القلوب بالجفاء ، لكن أمينة أخبرتني أن عاطف أعلـن عـن شخصـيته لفتاتـه . وعرفت أنه ثري فعلاً وأن عليها أن تنتظـر تخرجـه مـن الجامعة وعودة أمواله من قبضـة الوصـي إلـى قبضـته ويتزوجها .وقد سألت البنت الكبيرة محسن ابن أمينـة عمـا سيفعله . قال إنه ليس في ثراء عاطف ولن يكون يوماً فـي ثرائه . وأنها عرفته فقيراً وسيبقى فقيراً .إذا قبلته على هـذا الوضع فأهلاً بها . وإذا رفضته فسوف ينسحب من حياتهـا لكن الفتاة لم ترض بغيره بديلاً .

كنت قد انتقلت إلى قصر الهرم حتى لا يشاهد فارس ابنته عفاف مرة أخرى ، ولعل في نفسي شعور أنه قـد يخطفهـا منى أو يحرضها على الانضمام إليه . وفي نفـس الوقـت لاحت لي فكرة أن لو أراد عاطف أن يتزوج فليـزف إلـى

عروسه في قصر الزمالك .وهكذا لا يتسنى لـي أن أراهـا صباحاً ولا مساء إلا في أوقات متباعدة ، فلا أقرف من أنها من طبقة دنيا ، ويعذبني ذلك الشعور . ولا أحس بالتعـالي عليها ، فيضايقها ذلك ويضايق عاطف أيضاً . وليهنأ بها في قصر أبيه ، ولا أهمية للجزء الذي أملكه في هذا القصـر ، فأنا لم أعلن عنه وتنازلت له سراً عنه ، ولا يجـوز لأولادي الآخرين أن يتطلعوا إلى ثروة أمهم التي تنازلت عنها .

المهم اختفيت عن نظر فارس حتى يتحقق الطلاق الثالث . لكن صادفتني في تلك الأثناء مشكلة تبحـث عـن حـل ، تمثلت في وجود ابنين لأمينة في سن عفاف ابنتي . أحب كل من طارق وأمين ولدا أمينة الأوسطين ابنتي عفـاف . كـان طارق في السنة الثانية في المدرسة الثانوية . وقد بلـغ مـن العمر السابعة عشرة . وقع في هوى عفاف دون أن تـدري وكتم في نفسه هذا الهوى . وأغرم بها أمين وهو فـي مثـل سنها وكان في السنة الأولى في المدرسة الثانوية . وكتم هو الآخر غرامه . أما عفاف فلم تنظر إليهما إلا على أنها أخت لهما . وقد عرفتُ ذلك الخبر من أمينة حينما صرحت لي أن الولدين يتشاجران . وذلك من أجل خدمة عفاف . إذا أرادت كتاباً أسرع طارق بإحضاره لها . وإذا أرادت كـوب مـاء أسرع أمين بسكب الماء من الدورق في الكوب ووضعه على صينية صغيرة ويقدمه لها . إذا طلبت شـراء شـيء مـن الخارج تنافسا الأخوان على شرائه وإذا لم يستسـلم واحـد لرغبة الآخر دق الشجار بينهما . ما السبب يـا أمينـة ؟ ..

السبب هو القلب وما يريد . لا .. لا.. يا أمينـة . البنـت لا تزال صغيرة وإلا عزلتهما عن مخالطتها . ثم يجب أن يعرفا .. ولم أكمل . عرفت أمينة أن وضعهما الاجتماعي لا يجوز أن يسمح لهما بالتفكير في حب عفاف . كأن هناك علاقة بين التفكير والحب . كل ما يعرفه خلق الدنيا أن الحب يبدأ ثـم يحدث التفكير في الحب . ولم يقل أحد أن العكس صـحيح . حاولت أن استشف شغاف عفاف . وأن أدرك منها اتجاهات قلبها . غير أنها لم تكن على علم بشيء . ولم تفسر تنـافس الأخوين على أنه تنافس على قلبها .وأوصيت أمينة ألا يجتمع الأخوان مع عفاف وأن تجعلهما لا يخرجان مـن غرفتهمـا بالدار الملحقة بالقصر والمعدة لهم جميعاً . وكنـت اسـمح لمحسن أن يدخل القصر هو وأخته الصغرى وفاء التي تلعب دائماً مع سوسن ، فهما في سنين متقاربتين . لسـت أدرى من أين جاءتني تلك النزعة في التفرقة بين طبقات المجتمع . لعلها نبتت بعد أن تزوجت فارس ثم مرسي وكلاهما كانا من الطبقة المتوسطة . وشعرت بالحياة معهما بضيق في العيش لم أعهده بسبب مرتبهما المحدودين بل إن الأول لم يكن عمل بعد وكنت أصرف عليه . فكأني كنت أنفس عن هذا الضيق بفضل ما ورثت من أموال . قاسيت معهما من نوع الطعـام ونوع الملبس والمسكن . لكـن مـع فهمـي آخـر الأزواج المخدوعين لم أشعر بذلك فقد كان ثرياً ينفق ببـذخ بعكـس الرجل الأول في حياتي . لقد بت أعتقد أن بخله هو الـذي قضى عليه وليس تقدمه في السن . لكن كيف كان بخله هـو

السبب مع أنه عاش عمراً مديداً ؟ .. إنها أفكار تراود النفس ولو أن الواقع يكذبها في بعض الأحيان .

فضيلة

كان من السهل أن أتعرف على فهمي من خـلال أخيـه خيري ، فأنت أدرى بعلاقتي السابقة لي معـه . ويمكـن إذا أعدت علاقتي بخيري - وهو يتمنى فـي رأي - سـوف أتعرف على أخيه .

تركت المحل في الصباح ، واتجهت إلى شركة خيـري . كنت اعرف مقرها ولكن لم أزره يوماً في الشركة . كانـت العلاقة بيننا سرية حتى أن رأفت المخرج لم يعـرف هـذه العلاقة رغم أن خيري نزعني منه أو سرقني بالأحرى منه .

ما كدت أدخل من باب مدير مكتبـه ، حتـى اسـتقبلني بعاصفة هوجاء من الطرد .

- لم جئت ؟ .. ماذا تريدين ؟ .. عودي من حيث أتيت .

قلت له بصرامة :

- ما هذا ؟ .. هل أنت مجنون ؟ ..

عند هذه اللحظة دخل رجل لا أعرفه . كنت أقول له :

- هل تعامل عملاؤك بهذا السلوك السيئ ؟ ..

كان قد نهض وهو يقول كلماته العنيفة ، وحينما وصـلت عبارتي الأخيرة . ورأى رجلاً يدخل ، امتص غضبه ، وعاد إلى وقاره وضبط أعصابه ، فهو يشاكسني في حارة ، يبـدو

بريئاً أمام الناس في الشارع ، وحاول أن يجلس ، وأنا انفجر فيه قائلة :

- لا أظن أن ذلك مستوى رئيس مجلس شركة محترمـة أن يستقبل عملاءه بهذه الطريقة السيئة .

شدني الرجل برقة ، وقال لي بهمس :

- تعال يا مدام .

- لا اعرف ماذا حدث له .

لم أعتقد أن خيري كان سيقابلني هذه المقابلة الشرسـة . وشعرت أن خطتي في اللقاء مع فهمي خابت . فكيف سأدخل الشركة بعد الآن وألتقي بفهمي ؟ .. انقدت للرجـل ، وهـو يدعوني إلى مكتبه ، ليطمئن خاطري . وحينما جلست عند المكتب على مقعد مريح ، ذي إسفنج قوى متين ولكنه لـيس مؤلماً . رأيت لافتة على المكتب تشير إلى اسـم الرجـل : فهمي عبد الرزاق .

تنهدت قليلاً . وعرفت أنني بلغت هدفي دون أن أدري .

لم ألاحظ عليه أنه اكتشف أن الماثلة أمامه ، هـي تلـك الفتاة بنت الإسكافي الذي سكن يوماً بجوارهـا فـي إحـدى حواري القاهرة . كما أنني لم اكتشف ذلك أيضـاً . سـمعته يسأل :

- ماذا كنت تريدين من الأستاذ خيري ؟ ..

- كنت أريد أن أعرف أنواع البضاعة التـي تسـتوردها الشركة وأسعارها وكذلك منتجات مصانعها . وذلـك لأنـي أريد أن افتح محلاً كبيراً تباع فيه المعلبات الغذائية .

- لكن لماذا عاملك هذه المعاملة ؟

- لأني كنت صديقته في يوم من الأيـام ولـم أرض أن استمر في الصداقة إلى الأبد . كنت أريد أن أكـون زوجـة محترمة . لكن كان هو يريدني عشيقة فرفضت . وفي نفس الوقت كان يريد أن يتزوج من تلك المسماة دليلة شكري ...

قاطعني بفضول :

- دليلة شكري .

- نعم . كان يريد أن يتزوجها . لقـد قمـت بمراقبتهـا وعرفت إنها مزواجة وكانت تدعي البراءة والعذرية . عرفت أن لها أولاداً من زيجات سابقة .. وكانت تـدعي أنهـا لـم تنجب . ولا أدري كيف كان يستمرئ علاقة غيـر شـرعية معي ، وفي نفس الوقت يريد الـزواج مـن امـرأة بهـذا الصنف .

- إنها سوف تكون علاقة شرعية ...

- نعم .. نعم .. ولما أثور وأرفض العلاقة غير الشرعية يستنكر منى ذلك . ثم جئت إليه فقط لأشتري بضائع ولـيس لأجدد علاقات ماتت .

- على العموم ، اجعلي تعاونك معي ، ولا تتصلي به .. أنا هنا مدير المخازن ، وأستطيع أن أبيع لك من بضاعتنا .

- والله نفسي أصابها الصدود . لكن ما باليد حيلة . فقـد دلني الناس على أنكم من تجار الجملة المحترمين .

- شكراً .. شكراً ..

حاولت أن أتأكد فأشرت إلى اللافتة وسألت :

- هل أنت أخوه ؟ ..
- نعم .. نعم .. أنا أخوه .
- شتان بينكما . أنت هادئ وهو شرس . أنـت مـؤدب وهو ...
ونطقت الكلام وعيناي تدمعان ، وأجففهما بمنديل ورقي .
- أرجوك . لا أريد دموعاً .
ثم سألني فجأة :
- أتعرفين دليلة شكري .
- لا .. لا أعرفها . هل تعرفها أنت ؟ ..
طأطأ رأسه قليلاً وقال :
- كانت زوجتي .
سألت ببهجة :
- هل طلقتها ؟ ..
قال بفزع : لا .. لا .. أقصد إنها زوجتي . لكنها هربت مني . قال لي أخي إنني يمكن أن أجدها في قصـر ملكهـا بالهرم .
قاطعته قائلة : هذا هو القصر الذي رأيت فيه أولادها .
استطرد قائلاً : ذهبت فعلاً إلى القصر لكن للأسف اتضح لي أنه بيع عند إعسار أبيها واشترته امرأة تسكن فيـه مـع أولادها .
ولم أجده يربط بين بنت الإسكافي وهذه المرأة الغنيـة . ولعل السبب أنه لم يكن يراني كثيراً فلم تعلق صورتي فـي

ذهنه . ولو أني كنت أعرف حكايته جيداً من أخيـه خيـري فتذكرته على الفور :

- ألم تطلقها ؟ ..
- لا ..لا .. لم أفكر .
- أمعقول يا ربي . امرأة تهجرك وتبقيها على ذمتك . أنا لو كنت منك لطلقتها على الفور .
- سوف أبقيها هكذا كالبيت الموقوف .
- وماذا ستستفيد ؟
- مجرد انتقام من امرأة .
- لا .. لا .. أنا لا أوافقك على ذلك .
- لن أفكر أبداً في طلاقها حتى أجدها .
- ألم تتزوج غيرها ؟ ..
- نعم تزوجت . وزوجتي تعرف أنني كنت متزوجاً .
- لكن هذا خطر . لقد تزوجت وأنت تعرف أنك لو لـم تبلغ الزوجة الأولى تتعرض للعقوبة . أتعرف أنها لو عرفت لأبلغت الشرطة عنك ، فتحـبس وهـي يمكنهـا أن تطلـب التطليق من القاضي ويستجاب لها .

قال: ياه .. لم اكن أعرف ذلك . قلت:هكـذا تـم تعـديل القانون .

قال: لكنها هربت مني .. وأنا لا أعرف مكانها . قلـت: الموضوع شائك ويحتـاج إلـى محـام حتـى لا تتعـرض للجزاء .

دليلة

كنت أبحث عن أمي كما تعرفين ، لكن لـم أجـد وثيقـة واحدة تقودني إليها ، حتى اسمها المذكور في شهادة المـيلاد ،فقد يكون اسماً وهمياً ، وقد حاولت البحث عنه فـي دفتـر الهواتف ، غير أني لم أجده ، وعنوان ميلادي هـو قصـر الهرم ، فكيف أبحث عنها فيـه ؟ .. أكانـت تعـيش فيـه وطردها أبي ، أم كانا يعيشان في مكان آخر وتعمد أبـي أن لا يذكره حتى لا أتعرف عليه حينما أنوي البحث عنها . غير أن ابنتي عفاف كان يواتيها الشوق لأبيها ، مثلما كان الشوق يواتيني لأمي . ولعلها كانت تظن أنه مات مثلما مـات أبـو عاطف . ولما تجرأت وسألت أين أبي ؟ .. لم أجبها . ولـم تكرر السؤال بعكس جمال وسوسن . لكن لما تجسد أمامهـا ذلك الوالد الغائب ، وعرفتها به في بيتك . عرفت أنه علـى قيد الحياة ، فكيف تتصل به كلما مزق الشوق أحشاءها إليه ؟ .. إنه محاسب معروف . كان يراجع حسابات الخالة فضيلة . إذاً فهو رجل مهم . وكل رجل مهم لـه هـاتف . أخـذت تبحث عن اسم والدها الذي تعرفه تماماً . حتـى وجدتـه . نادراً ما يكون الاسم لعدة أشخاص . لابـد أن يختلـف لقب الأب أو لقب الجد أو لقب الجد الأكبر لو كـان الاسـم رباعياً . وفعلاً وجدت الاسم مطابقاً لاسمها في شهادة الميلاد . فلم يصل بي الفجر في يوم من الأيام أن أغير أسماء آبـاء أبنائي أو بناتي . ولعل والدي فعلها وكان يسكن فـي مكـان غير قصره وإلا لجاءت أمي تبحث عني . وقد لا يكون فعلها

ولكن المؤكد أن السكن كان مختلفاً في زمن الزوجيـة عـن زمن الانفصال . ولا تدري أمي مكان قصره أو لعلها ظنتـه مخموراً يعيش عالة على النساء يمـتص مـنهن أمـوالهن ويهرب .

يبدو أن عفاف اتصلت بأبيها ، فجاء فارس ليقابلني فـي قصر الهرم . قابلته على مضض ، وهو يسألني :

- لماذا انتقلت من قصر الزمالك إلى قصر الهرم ؟ ..

- أنا حرة .. انتقل متى أريد وكيف ما أشاء .

- لكنك كنت تسكنين شقة في ذلك البرج المطل على النيل يوم تزوجنا ؟ ..

- كان ذلك عش الزوجية .. وتركته . لقد تزوجتني ثرية . كانت لدي سيارة . وكانت الشقة باسمي . وكنت تعرف أن معي مالاً لم أخف عنك شيئاً .

- لكن أخفيت عني أنك حامل مني .. ولك بنـت اسـمها عفاف فارس .

- كانت هناك ظروف مرضية اضطرتني أن اختفي مـن حياتك . ولما بحثت عنك بعد شفائي كنت في السجن . ولـم أعرف متى خرجت ولم أعرف أين تعمل . ولا أين تقيم .

- ولما قلت لك إنني أريد أن أرى ابنتي .. تركت قصـر الزمالك وجئت هنا إلى قصر الهرم .

كدت أقول له إنني كنت أعاني من عقدة نفسية هي الحنو الزائد على أولادي ولا أطيق أن يخطفهم مني آباؤهم هكـذا كنت أتصور . غير أني قلت :

- قصر الزمالك ملك لأبني عـاطف ، وهـو يريـد أن يتزوج فيه فتركته لذلك السبب . بالصدفة حصلت مطالبتـه حينما طالبت أنت برؤية عفاف .

- ولم لم تتصلي بي في العمل وتعلميني بهـذا الانتقـال حتى أجد المكان الذي ألتقي به بابنتي أو آخذها منه ؟ ..

- لا أعرف مكان عملك ولا مكان إقامتك .

- سلي صديقتك فضيلة .

- فضيلة .. لقد خاصمتنها يوم التقيت بك عندها .

- لا .. يا هانم . أنت تكذبين . حياتك كلها كذب .

- أرجوك .. تذكر أنك في بيتي .

هز رأسه بامتعاض وهو يقول :

- المهم أنني أريد ابنتي . لتعيش معي في بيتـي . شـقة محترمة مؤثثة . بها كل ما يخطر على البال .

- والله إذا وافقت البنت على ذلك فلتذهب معك .

ناديت على عفاف أن تأتي ، وكأنها كانت تعرف أن أباها موجود بالقصر . فهرعت على الفور وهو يقول :

- مثلما بقيت معك ست عشرة سنة فلا بأس أن تقضـي معي سنوات حتى تتزوج وتمضي إلى بيت زوجها .

دخلت عفاف بسرعة . وتوقفت حينما رأت أباهـا . ثـم نهض الأب وهو يقول : أهلاً عفاف . وفتح ذراعيه ليضمها

إليه ويقبلها في وجنتيها بحرارة وتقبله في وجنتيه بتيه . . ما هذا الغرام المفاجئ ؟ .. ألم تكوني ستفعلين ذلك لو التقيـت بأمك ؟ .. وأين هي أمي ؟ .. عفاف عرفت أباها . أما أنـا فلا أعرف شيئاً .

قال الأب بوضوح :

- تعرفين يا ابنتي أن لأمك حضانتك حتى سن الحاديـة عشرة . وقد يمتد ذلك إلى الثالثة عشرة . لكن بعد ذلك يحق لي الولاية عليك وضمك إلي . فهل تقبلين ؟ ..

سكتت البنت ولم تتكلم لعلها كانت تخشى عصـبية أمهـا وانفجاراتها المباغتة . قال الأب :

- افهم أن السكوت علامة الرضا .

وقفت معترضة . وقلت :

- هذا ليس زواجاً يا أستاذ . السكوت خجل وعدم درايـة بما يصلح وبما لا يصلح لها .

فجأة قالت عفاف :

- أنا لا مانع عندي .

سقطت على المقعد . وأنا مذهولة . ابنتي التـي ربيتهـا وأطعمتها وكسوتها وأدخلتها المدارس الأجنبيـة الفرنسـية . وجعلت منها عروساً . تقول الآن : لا مانع . عندي .

انتفضت وقلت لها صارخة :

- اذهبي . لملمي ثيابك وكتبك . وأمض معه . إنها الآن في مدارس فرنسية . أرجو أن تجـد المـال الـذي تدفعـه مصاريف لها .

قال متحدياً :

- عندي .. عندي بإذن الله ذلك المال .

لما خرجت عفاف . كانت الدموع تتجمع في عيني . فجأة انهمرت غزيرة وفارس يقفل باب القصر . ومن بعيد تركتني أمينة أبكي دون أن تحاول أن تخفف عنـي . وكانـت هـي الأخرى تبكي . لم تفكر في يوم أن عفاف ستوافق فيه علـى ترك البيت . بل لم تفكر أن خروجها سيكون هكذا بسهولة . كان من الممكن أن أعود لفارس من جديد ومعي ابنتي . بل كان من الممكن أن يقيم فارس معي لكن ذلك العقد المشـئوم الذي عقدته مع فهمي عبد الرزاق يمكن أن ينكشف ، وأقـع في جريمة تعدد الأزواج من جديد . لم يكن هناك غير فهمي لم يتخذ قراراً بعد بالطلاق . وأنت تسأليه كـل يـوم هـل استشار محامياً . فيكلمك في محاك متى تطلبـين أصـناف المعلبات من شركته . كان فهمي هو الشـوكة الباقيـة فـي سلسلة الجرائم التي ارتكبتها .

لم أستطع أن أصرح لأمينة بذلك وهى تدنو مني وتقول :

- كان الأجدر بك أن تعودي إليه .

وانتفضت صارخة :

- لا أستطيع .. لا أستطيع ..

رن جرس الهاتف وأنت تقولين لي :

- مبروك .. مبروك .

- على ماذا يا ست فضيلة . على خيبتي .

- لقد طلقك فهمـي هـذا اليـوم .. ومعـي الوثيقـة . استخرجتها من فم الحنش بالقوة .

- يا للخيبة .

- ماذا حدث ؟ ..

- لقد أخذ فارس عفاف ابنتي لتعيش معه . ولم تعـارض الفتاة . ذهبت طواعية .

أخذت أفتش عن السبب . كيف تفارقني بهذه السـهولة . ماذا فعلت بها ؟ .. هل طبعي العصبي هو السـبب ؟ .. أم هل اشتياقها إلى أبيها هو الباعث .إنني لو كنت وجدت أمـي أو عرفت أين هي لتركت أبي ورحلت إليها ولـو سـافرت بلاداً بعيدة . هي كذلك وجدت أباها ، وكانت تطمع أن تـراه فلما سنحت الفرصة تركت أمها لعلها تستمتع بأبيهـا بعـض الوقت .

فضيلة

يبدو أن الإنسان يخترع الفكرة ، ويصدقها ، ويسعى إليها ليحققها . اخترعت فكرة أنني سوف أنشئ متجراً كبيراً فـي مدينة ٦ أكتوبر ، وسأزوده بالمعلبات المصنعة لتباع فيـه ، وصدقت الفكرة ، وأخذت سيارتي يوماً إلى مدينة ٦ أكتـوبر أشاهد أين سأقيم المتجر . دلني البعض على الحي السـكني بعيداً عن الأحياء المكتظة بالفلل . وبدأت أخوضه بسـيارتي استطلع المتاجر الخالية . لم تكن بالاتساع الذي رأيتـه فـي باريس أو روما أو بيروت ، لكنها من الممكن أن تكون نواة إذا ضمت بعضها إلى البعض . وشعرت أن هـواء إحـدى

العجلات قد ضعف قليلاً ، فبدأت أبحث عـن ورشـة فـي الطريق . وفعلاً وجدتها .. وقفت وطلبت من الصبي الصغير في الورشة أن يملأ العجلة بالهواء .

لا تتصوري كم هي الصدفة رائعـة ! .. إن لهـا وقـع السحر في حياة الإنسان ، وكأن أو هو المؤكد أن هناك قـوة عليا - هي قوة ربنا سبحانه وتعالى - تنظم الكـون بدقـة وبراعة فائقتين . وتجمع الشتيتين وتفرق المتآخيين . رأيـت رجلاً يبدو كصاحب الورشة يخرج من داخلها وينادي الصبي أن يعطيه مفتاحاً معيناً . ولما وجده مشغولاً بعجلتي . كـاد يستدير ويعود . لولا أن فتحت باب سيارتي سمعت صـوته ولم تخطيء أذني . لم تخطيء يا دليلـة . نبـرات صـوته الصعيدي . ورغم التجاعيد التي ملأت وجهه لكـن شـاربه المميز لا زال لاصقاً بالوجه . وعينـا الصـقر لا تـزالان تلمعان . صرخت : أخي . صرخ : فضيلة . لم يكن هنـاك وقار . ولم يكن هناك رقيب يقص المشهد . لقد ارتميت فـي حضنه وارتمى في حضني . كم افتقدت جو الأسرة . وكـم افتقدت والدي . قبلته في وجهه المليء بالشـحم رغـم أن القبل كانت نادرة فيما بيننا من قبل . شعرت بملح العرق في شفتي . ولعله قبلني أيضاً فلصق بشـفتيه الأحمـر والبـدرة ورائحة العطر الفرنسي . لم نصدق أنفسنا . وخرجا عمـال الورشة يشاهدون منظر الصعيدي وهو يحتضن بـل يلـتهم المرأة القادمة من القاهرة بل من باريز . فالتفت إليهم وقال :

هذه أختي . وعادوا إلى أعمالهم وهم لا يصـدقون أن هـذا الجلف له تلك الأخت الجميلة .

- متى عدت ؟ ..

- عدت منذ سنوات .. ولم أجدكم . وأين أبي وأمي ؟ ..

- أبوك أصيب بالروماتيزم أقعده عن الحركة . صار من العسير أن يذهب لصرف المبلغ الذي خصصته له . وكنا قد انتقلنا إلى ٦ أكتوبر في بداية نشأتها . وافتتحت هذه الورشة . وحمدنا الله على ذلك .

- كان من الواجب أن يخطر المصرف بعنوانكم الجديد . جئت من الخارج وذهبت إلى العنوان القـديم والأقـدم فلـم أجدكم .

وتأملني وأدارني بيده القوية وهو يسألني :

- ما هذه الحلاوة ؟ ..

- المال .. المال يصنع المعجزات .

- وهل تزوجت ؟..

- لا .. ما زلت عانساً .

- أنا تزوجت . ونعيش في شقة هنا في ٦ أكتوبر . قالوا إن هواءها عليل يرد الروح . ولكن أباك أقعده المرض .

- وهل بيتك قريب من هنا ؟ ..

- نعم .. نعم ..

- إذاً خذني لوالدي ... خذني إليهما ..

- تقصدين إليهم .. هناك أبي وأمـي وزوجـي وأولادي الثلاثة . كلهم ذكور والحمد لله .

لا تتصوري كيف كان اللقاء . تحامل العجوز الإسـكافي الذي ملأه الرصيف ببرودة دائمة وتيبس في العظام وطحـن صحته . ونهض يأخذني في حضـنه . لأول مـرة يتخلـى الصعيدي الجاف عن صرامته ويقبل هذه الفتـاة العـانس . وأمي ذابت في أحضاني فقد افتقدت الوحيدة التي كانت تتكلم معها . وزوجة أخي مبهورة بجمالي رغم أنني أدخل بقدمي من أعتاب الأربعين . وأولاد أخي ينتظرون قبلات عمـتهم الثرية التي فُقد الاتصال بها منذ زمن بعيد . سنون العمـر أصبحت لا تعد كأنها غابة قد حشرت فيها الأشجار حشـراً ..كل شجرة بسنة أو بشهر أو بيوم .

كادت الشمس تغرب . وأمي تسألني :

- ألم تتزوجي بعد يا فضيلة ؟

قلت : يا أمي .. كان يجب على المرء أن يسعى إما إلـى الزواج وإما إلى المال . واخترت المال . وها هـو العمـر يغرب دون زواج . لا أهمية للأمر . لم أشعر بغصة حتـى الآن .

قال الأب :

- لو كنت تزوجت ذلك الكاتب الذي تقدم لك .. نسـيت اسمه ، لكنت الآن لديك عدد كبير من الأولاد .

قلت في سري : آه لو تعرفوا أنني عقيم .

ولم انبس ببنت شفة .

استأذنت وأنا أقول :

- سوف ابني فيللا هنا في ٦ أكتوبر . وسوف أضـمكم إلي . فليأخذ أخي الدور العلوي . وآخذ الدور السفلي . أنـا وأنتما .

ثم نظرت إلى أبي وأنا أقول للرجل المقعد :

- سوف أمر عليك غداً يا أبي لنذهب إلى طبيب معالج .

قال زاهقاً :

- حاولنا يا ابنتي .. لكن المفاصل انبرت . واصبح مـن الصعب أن أمشي .

- لا تهتم . لقد خلق الله الداء ومعه الدواء .

وفعلاً أخذت أبي إلى طبيب اختصاصي في الروماتيزم . وكشف على الرجل العجوز . وقال إن حالته متأخرة . وعاد وقد ركب بجانبي السيارة محمولاً بساعدي أخي المفتـولين . ولعلهما كانا يتساءلان عن أسباب ذلك العز الذي أعيش فيه . وهل يكفي أن يلبث الإنسان في الخارج مدة ثم يعـود بهـذا الثراء . ووقفت عنـد محـل لبيـع الأدوات التعويضـية . واشتريت كرسياً متحركا لأبي . يمكن أن يحركه بالضـغط على زر كهربائي فيه . وفوجئ الرجل وهو يسألني عن قيمة هذا الكرسي . انزعج . ولكن لما كان الثمن قد دفـع فكـان انزعاجه لضخامة المبلغ وليس لأن المطلوب منه أن يدفع .

دليلة

أتعرفين لقد كان فهمي عبد الرزاق ذكيـاً للغايـة ، فقـد طلقني فعلا لكن أثبت في وثيقة الطلاق أنني أقيم في قصري بشارع الأهرام . وطلب من الشـرطة أن تـوافيني بوثيقـة الطلاق على هذا العنوان . وفعلاً تتبع المحضر حتى إذا مـا دخل القصر ، وبالصدفة فتحت الباب لانشغال أمينة بالمطبخ ، سلمني المحضر وثيقة الطـلاق . لـم أسـتطع أن أنكـر شخصيتي أمام المحضر ، فقد اجتاحتني موجة من السعادة لا يمكن وصفها حينما عرفت أن وثيقة طلاقي من فهمي هـي التي في يد المحضر . هذه الوثيقة هي آخـر سلسـلة مـن السلاسل التي كانت تقيدني بجريمة تعدد الأزواج .

جاء فهمي - في نفس اليوم - بعد تسليم المحضر الوثيقة . واز الجرس . وفتحت له سوسن الصغيرة الباب وسألت :

- من تريد ؟ ..

سألها فهمي بخبث :

- ما اسمك يا شاطرة ؟

قالت سوسن بسذاجة : سوسن .

- واسم أبيك ؟ ..

- اسمه فهمي عبد الرزاق .

اضطرب فهمي عند سماع اسمه . لم يكن يظن أن له ابنة مني . وأن البنت كبيرة في السن . تبدو كأنها بلغت السـابعة من العمر وتدنو من الثامنة . لكنه استجمع كل قـواه التـي انهارت فجأة . وسأل : ماما دليلة هنا ؟

تركته سوسن وأسرعت وهي تنادي : ماما دليلة .. مامـا دليلة . رجل يريدك .

جئت على صوتها الصارخ لأجد نفسي وجها لوجه أمـام فهمي عبد الرزاق . وصاح فهمي قائلاً:

- أنكرت السيدة المحترمة ، لا أعرف ما علاقتك بها أنك صاحبة القصر . وأن والدك باعه عند شهر إعساره . وهـا أنت في القصر . ولك مني طفلة اسمها سوسن .

بهت وقد تجمعت لديه هذه المعلومات بالصدفة المحض . سألته بعجرفة : ماذا تريد ؟ ..

- أريد الحقيقة . لا الأكاذيب التي لفقتهـا فـي حياتنـا الزوجية .

- أنا لم ألفق أي أكاذيب . أنت الذي تمثل أدواراً تعيشها وهي لم تحدث .

- أي أدوار ؟ .. ماذا تظنين في .. مجنون ؟ ..

- لا عاقل .. وألف عاقل . ألم تطلقني ؟ ..

- نعم طلقتك حتى انتهي من مشكلة قانونية نبهتني إليهـا امرأة .

- وما هذه المشكلة ؟

- لا داعي لأن تعرفيها .

- إذاً مع السلامة .

- وابنتي ؟ ..

- ها هي أمامك . يمكنك أن تأتي كل أسـبوع لتراهـا . وحينما تبلغ السن القانونية خذها إلى الأبد .

كانت سوسن تتأمل فاصل الشجار الطويل بيننا . لم تدرك الطفلة أنها أمام أبيها . لم تعرف فيما نحن نتشـاجر ومـادة التشاجر . وانحنى فهمي وهو يدنو منها :. وهو يقول :

- سوسن .. سوسن .

أصغت إليه . وهو يقول : أنا بابا يا سوسن .

نظرت إلى أمها . نظرت إلى تسألني بعينيهـا أن أدلهـا على الحقيقة . قلت لها : نعم هذا بابا . وقلت بعصبية : ألـم تسأليني مثل أخوتك أين بابا ؟ .. ها هو بابا أمامك .

وفتح فهمي يديه فتسللت فيهما برقة ، وكان راكعاً علـى ركبتيه يستقبلها بحنان . وذابا معاً . هل كان في إمكان فهمي أن يعيدني إلى عصمته ؟ .. لا أعرف . ولكن هل كان مـن الممكن أن يتعرض للجزاء لأنه لم يبلغني بزواجـه ؟ . لـم يتسن لي أن ألتقي بمحام ليدلني على ما يحدث في مثل حالتي . كل ما أدركته أن فهمي لم يفكر أن يعيدني إلـى عصـمته رغم أن طلاقنا كان رجعياً .. وفي خلال ثلاثة شهور يمكن أن أعود إلى بيت الزوجية بإرادته المنفردة .. ولعله خشـي من انتقامي بتعريضه لعقوبة عدم إبلاغ الزوجـة بـالزواج الثاني خاصة أنه يعرف عنواني ويعرف أين أقيم وسـلمني ورقة الطلاق على ذلك العنوان ، فلن يجرؤ أن يبـرر أمـام المحكمة أنه لم يكن يعرف لي عنواناً . ويبـدو أن زواجـه الثاني منعه من أن يعيدني إلى عصمته خاصة أن لديه أولاداً آخرين .

وماذا يمكن أن يقول فهمي لزوجه عن ابنته سوسن . هل يمكنه أن يقول إن لي ابنة من امرأة أخرى ؟ .. يبـدو أنـه جبن . بعد أن كنت معرضة للإدانة في تهمة تعدد الأزواج . أصبحت حرة . وبعد أن كان معرضاً للإدانة بتهمـة عـدم إبلاغ الزوجة بالزواج الثاني ، اصبح حراً . فمن يجرؤ بعد أن نال حريته أن يعود من جديـد يرصـف يديـه بـأغلال العبودية ؟ ..

انصرف فهمي على أمل أن تراه سوسن من أسبوع إلـى آخر .

أتتصورين أن سوسن أبدت فرحتها بعد أن وجدت لها أباً . وأذاعت الخبر بين أهل القصر . وكانـت تـرقص مـن السعادة . ولم تكف عن ذلك إلا بعد أن صرخت فيهـا بـأن تحترم نفسها . عصبية أنا مع أولادي ومع الناس أيضاً . ولا أستطيع أن أضبط أعصابي أبداً . ولو أن قلبي يرق بسـرعة وأحاول أن أصالح من أغضبته بعد ذلك .

الأمر الذي لم أتوقعه أن يأتي جمال ليسألني :

- أين أبي إذاً ؟ ..

فضيلة

اتجهت إلى مجلس مدينة ٦ أكتوبر لأشتري قطعة أرض ، وأقوم ببنائها . لم تكن الأحياء كلها جاهزة بالمرافق . اخترت الحي الخامس لدخول المرافق فيه ، ولم يكن الحي الأول قـد دخلته المرافق بعد . ولما عرفت أن التسليم لن يكون فورياً . طلبت أن أتسلم قطعة أرض من خمسمائة متر مربـع فـي

الحي المتميز . ولكن لم يكن التسليم فورياً كما تصـورت . وانتظرت طويلاً حتى تسلمت الأرض . وكنـت أزور أبـي وأمي وأخي وعائلته في كل أسبوع . ويبدو أن الزمن حـرر عقليتهم فتركوني أعيش وحدي . أو أن ضيق الشـقة التـي يسكنون فيها جعلهم لا يلحون في مسألة إقامتي معهم . كنت أترك الدقي كل أسبوع وآخذ معي كباباً أو دجاجاً مشـوياً أو سمكاً مشوياً وآخر نيء لتقليه زوجة أخي .. ونأكل جميعاً . لا تتصوري جو الأسرة كان يحولني من امرأة غارقـة فـي الحزن الخفي إلى سيدة تسبح في بحر من السـعادة . كيـف ضربت بالأسرة عرض الحائط وتركت مشاعري تجنح نحو الوحدة والرغبة في الحصول على المال . وتركت الحنـان والعواطف الدافئة ، لكن أعود وأقول كان الفقر هو الحائـل الوحيد بين أن انتمي إلى أسرة أو لا انتمي .

تحسنت صحة أبي تماماً . وصار يجلس في شرفة منزل أخي يتأمل الفضاء الفسيح أمامه . صحراء تنبت فيها مساكن قصيرة القامة لكنها تعج بالسعادة . يكفي الإنسان أن تكون له مأوى حتى يكون سعيداً . يأتي بعد ذلك الأكـل والشـرب والملبس . المأوى في مقدمة كل شيء . لكن أعود وأقول من أين يأتي المأوى إذا كان الإنسان لا يعرق ولا يتقاضى مقابل عرقه أجراً يسعده ؟ .. أصبحت فيلسوفة يا دليلة وأنا لا أقرأ إلا الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية ولا أكتب .. حياتي مجرد عمل خالية من الرجال .

وجاء مرة أخرى الدكتور فوزي إلى شقتي .. هذه المرة . هو يعرفها جيداً لأنها من عرق يديه . اشتراها لي باسـمي . لما فتحت له الخادم استأذنت أن تعلمني . سـمحت لـه أن يدخل . ليس من الممكن أن اطرد رجلاً من شقته . قد يكون العقد مكتوباً باسمي لكني لا أنكر أبداً أن المال مال الطبيب .

سألته بجفاء :

- ماذا تريد يا دكتور ؟ ..

قال بخجل :أنا أريدك في الحلال .

- وتعلن ذلك على الناس كافة ؟ ..

- وهل هناك حلال في الخفاء وحلال في العلن ؟ ..

- نعم .. رأيته في فيلم من الأفلام .

ثم سألت : وزوجك نجمة الإغراء ؟ ..

- إنها أصبحت امرأة مريضة بالقلب .

- ولم لا تعالجها . ألست طبيباً ؟ ..

- أنا طبيب أمراض نساء .

- أرسلها إلى طبيب أمراض القلب .

- إنها تعالج يا فضيلة .

- على العموم اطلبني من أبي الذي كان إسكافياً . ويعيش مع أخي الميكانيكي .

ظننت أنه سوف يضطرب عند سماع كلمـة إسـكافي أو ميكانيكي . غير أنه قال :

- أعطني عنوانه .. وسوف أذهب إلى مقابلته .

- سوف تقول له إنك متزوج وتطلب الاقتران بابنته ؟

- ما رأيك أنت ؟ ..

- لا تقل له .. وهل ستقول لزوجتك نجمة الإغراء .

- إغراء .. ذلك كان في الماضي . إنها ربة بيت الآن . لم تمثل منذ سنوات .

- لكن عليك أن تقوم بإبلاغها

- هل ذلك ضروري ؟ ..

- ألا تعيش في الدنيا يا دكتور . إن ذلك هو القانون يجب على المأذون أن يبلغها بالزواج الجديد حتـى إذا أرادت أن تطلب التطليق ترفع دعوى خلال سـنة وتطلـب الطـلاق وسوف يحكم لها القاضي . قال : لم اكن أعرف .

قلت كأنما أعرف قوانين البلاد : الجهل بالقـانون لـيس بعذر .

سمعت تلك العبارة وحفظتها . كان قد رددها فارس يوما بمناسبة لا أذكرها . وانطبعت في ذهني . يبدو أن لا أهميـة أن يكون الإنسان أمياً . فكم من الأميين من يحفظ القـوانين عن ظهر قلب . وكم من الأميين من يسـتطيع أن يتـذكر الشعر أو النثر لو تمت قرأته عليه مـرة أو مـرتين . أنـا شخصيا كنت احفظ الأغاني عن ظهر قلب وأرددها بدقة بل أرددها طبقاً لسلمها الموسيقي . بل كنت احفظ الأفلام ومـا يقال فيها من عبارات بليغة وأرددها بيني وبين نفسي .وأقرأ الصحف وأعرف ما فيها ولكن لم أكن أستريح إلـى قـراءة الكتب ، لذلك لم أكن أقتنيها .

ويبدو أن رأفت المخرج لم يفكر أن يدخلني عالم التمثيـل حتى لا اشتهر ويفقدني ، بسبب قدراتي على الحفظ والتميز .

واتفقنا على أن يذهب إلى والدي يوم الجمعة القـادم فـي شقة ابنه بمدينة ٦ أكتوبر . وهناك سوف أكون موجـودة . ويطلبني منه في حضوري . كنت أعرف أنه لن يجـرؤ أن يذهب . ليس من السهل أن يتحرر من أغلال نجمة الإغراء . وأن يخطرها أنه سوف يتزوج غيرها . وأن يقلب حياتـه رأساً على عقب . وما توقعته كان . إذ أن الطبيب النابغة لم يحضر .

دليلة

دون أدنى شعور بتصرفاتي ، أخذت جمال مـن يديـه ، وقلت له تعال معي .. سوف أعرفك بأبيك . ركب سـيارتي إلى حي السكاكيني وأنا أقودها .. وعنـد العمـارة وقفـت بسيارتي .. تلك التي كنت فيما مضي أخفيها في شارع بعيد عن شارع العمارة . وأقودها يوم الأربعاء على زعم أننـي مغادرة إلى أسرتي في الصعيد دون أن يدري مرسـي أنـي أملك سيارة ..

فتح مرسي الباب ، وفوجئ أن أمامه دليلة التي هجرتـه بلحمها وشحمها ، ومعها صبي لا يعرفه .

سأل مرسي : من ؟ .. دليلة ؟ ..

وقف متصدراً الباب كأنه لا يريد أن يدخلني . سـألته : هل تسمح أن نتكلم بالداخل ؟ ..

قال وهو يفسح لي الطريق : تفضلي .. تفضلي ..

كان متسامحاً كعادته . ودخلنا . ونكش شعر جمال الناعم مثل شعري وشعره . وقال : ابن من ذلك الصبي ؟ ..

التفت إليه وأنا أجلس على نفس المقعد الذي كنت أجلس عليه فيما مضى من زمن . قلت له :

- هذا ابنك جمال .

وكان لا يزال واقفاً ، ومرسى لا يزال هو الآخر واقفاً . التفت إليه مرسي ، وضمه إليه بعذوبة ، ولم يبادر بالاعتراض . كدت أبكي من فرط الحنان الأبوي الذي أشاهده ولم يصدر يوماً من أبي . إن مرسي رقيق المشاعر ولعل السبب في ذلك أنه نشأ وحيداً . ماتت أمه وهو صغير . ومات أبوه .. وتركه وحيداً . بكى مرسي كثيراً في حضن ابنه .وسألني :

- لم حرمتني منه كل هذه المدة ؟ ..

قلت على الفور :

- كنت مريضة .

قال : مريضة ؟ .. اثنتا عشرة سنة .

- نعم .. كنت أعاني من عقدة نفسية .

جلس وابنه على ركبتيه . وسأل :

- عقدة نفسية .

رأيت أن أصارحه لعل صراحتي تشفع :

- أنا بنت رجل ثري ، اختطفني من أمي ، ولا أعرف مكانها حتى الآن ، وهى لا تعرف مكاني أيضاً . وكنت أخشى أن يرتكب معي أزواجي ذلك .. لذلك كنت أبادر

بالهرب منهم بمجرد أن أشعر بالحمـل . والآن شـفيت .. عرفت أن أبي كان رجلاً شاذاً وأن ليس كل الرجال مثل أبي .. ولما طلب مني جمال أن يرى أباه .. وجدت أن أعرفـك به .

قال وهو يتأمل ملامح الولد : غريبة !! ..

كان الولد صورة منه . والإنسان يعرف صورته بدقة . لم يشك أبداً في أبوته له . سألني : وما العمل ؟ ..

فضيلة

ربما وجد الدكتور فوزي نفسه مضـطرباً إزاء واجـب الزوج وواجب الحب . يبدو أن نجمة الإغراء تفاقمت حالتها . واضطر أن يأخذها إلى طبيب للقلب .. ويبدو أن طبيـب القلب قرر أن تسافر إلى أمريكا للعلاج . وقرأت في الجرائد وكنت أقرأها حتى أزداد ثقافة ، وأقتل الفراغ الكبيـر الـذي يجتاحني . فلا إدارة محلي مـلأت الفـراغ ، ولا مشـاهدة المسلسلات والأفلام وبرامج التلفاز كانت قادرة على محوه . قرأت أنه سافر مع نجمة الإغراء إلى أمريكا حتى تعالج من أمراض القلب . غفرت له تخلفه عن وعده . وكنـت أمنـي النفس بحياة مع الرجل الذي أعتز به . لكن لا بأس أن يلبي نداء الواجب ، فهناك عشرة طويلة بينه وبين نجمة الإغراء ، لا يجوز لأحد أن ينكرها . ولا يجوز أن يطعن في الوفـاء بواجباتها .

دخل رأفت المخرج السينمائي في محلي . وبالصدفة كنت أتفقد نظام ترتيب الملابس بالدور الأول . وكانت معه نجمة

جديدة يريد أن يشتري لها ملابس مستوردة تليق بدور لها في مسلسل . ويبدو أنه كان زبوناً للمحل دون أن أعرف ، يأتي ويشتري ويمضي ولا أراه .

صرخ قائلاً : فضيلة . ومد يده يصافحني وهـو يقـول للنجمة الجديدة :

- هذه فضيلة هانم .. حبي الأول والأخير .

نظرت عاملات المحل إلى الرجل باستغراب . اسـتغربن ما يقول وسط زبائن المحل .

أهكذا يعترف على الملأ بحبه . من يكون ذلك الرجـل ؟ .. يمكن أن يكون الممثل مشهوراً لأن الناس تعرف رسـمه واسمه . أما المخرج فلا شهرة له إلا بين أهل الفن . بل إن أعماله يمكن أن تكون أكثر منه شـهرة ولا يتبـين النـاس ملامحه ولا يعرفونها .

قلت له ، وأنا اسحب يده من يدي :

- هذا ليس المكان الذي تعلن فيه حبك يا أستاذ رأفت .

قال : أنا أريد أن أراك .. وأعرف أسباب هجرك لي .

همست بصدق :

- كف عن ذلك .. هل جننت ؟ ..

قال يهمس لي :

- أنا حتى الآن لا أعرف كيف اختفيت من حياتي . وماذا فعلت لك حتى تختفي من حياتي ؟ ..

قلت له ، وأنا أهرب منه إلى الدور العلوي :

- فيما بعد .. فيما بعد ..

وصعدت وهو يسأل عاملة :

- من تكون ؟ ..

أجابت العاملة : إنها صاحبة المحل .

قال : يا لي من أخرق !! ..

ولما انتهت النجمة الجديدة من شـراء الملابـس للـدور المعهود إليها . قال لها : خذي سيارة أجرة وعودي إلى بيتك ..

صعد إلى الدور العلوي من المحـل . ورآنـي أجلـس مضطربة على مكتبي . وقال بصوت خافت :

- أنا آسف .. لم أتمالك نفسي من الفرح برؤياك .

سألته بجفاء :

- ماذا تريد ؟ ..

- أريد أن أراك ثانية .. ومدي الحياة .

قلت بلا مبالاة :

- وأنا لا أريد أن أراك .. مدى الحياة .

- لم .. لم يا حياتي ؟ ..

- أرجوك .. رأفت .. أحفظ لسانك .

نظر حواليه وقال :

- إن أحداً ليس معنا ..

قلت : المهم .. احترم نفسك ..

سأل : ما رأيك ؟

- فيم ؟ ..

- في أن نلتقي ثانية .

- قلت لك إنني لا أريد أن أراك .
جلس كأنما لا ينوي أن يذهب . وراح يقول :
- تعذبت كثيراً لبعادك عني . لم اعرف سبب هجرك لي . كنا سعيدين .. فلم تباعدت ؟
- أنا لا أحب حياة الحرام .
- ولم لم تقولي .. وكنت قد عقدت عليك على سـنة الله ورسوله . لو كنت صارحتني لما ترددت .
- على العموم أعلم أنني امرأة عقيم لا انجب أطفالاً ..
- أنا لا أريد أطفالاً .. أنا أريدك أنـت .. لقـد عرفـت غلاوتك يوم أن تركتني .. وأنت تزدادين غلواً عندي .. أنت جوهرتي .. أنت نور حياتي .
- اسمع .. أنا لا احـب الـبكش . إذا كنـت تريـد أن تتزوجني فأذهب وقابل أبي الإسـكافي وأخـي الميكـانيكي واطلبني منهما . فإذا وافق فأنا لا مانع عندي . وإذا لم يوافقا فعوضك على الله .
- وأين يسكنان ؟ ..
- أعطيك العنوان .. وسوف أكون يوم الجمعـة القـادم عندهما .. وكتبت العنوان على ورقة وأعطيتها له .
كان رأفت يدنو من السابعة والأربعين . يكبرنـي بسـبع سنوات . وقد أصلع شعره . وخف حاجبيه الكثيفين . وامتلأ . فتغير وجهه القبيح إلى وجه مقبول . ولم أجـد مانعـاً أن أعود إليه ولكن بطريق شرعي خاصة أن حياتي مع الوحـدة أصبحت تؤلمني .

دليلة

تركت جمال يعيش يومين مع أبيه ليتمتع أحدهما بالآخر . وعدت إلى بيتي . لألاقي ألماً جديداً . إذ دخل على عاطف وقال :

- سوف أتزوج يا أمي .

نهضت صارخة :

- من البنت البولاقية ؟ ..

ذهل عاطف من كلامي وسألني :

- كيف عرفت ؟ ..

قلت : أنا أعرف كل شيء . وأحب أن أقول لك إن هـذه البنت ليست من مقامك . وسوف تعاني من العيش معها .

قال بأدب وصرامة :

- هذه البنت تتعلم الآن بالجامعة . وهي بنـت مؤدبـة . وبنت مثقفة .

- ومن بولاق .

- السكن في بولاق ليس عيباً . إن بولاق كانت هي سكن المصريين الأثرياء فيما مضي مثل شبرا . وكانت الزمالـك عششاً . والحال لا يدوم . إذا كنت تريدين حضور فرحـي فأهلاً وسهلاً . وإذا كنت لا تريدين فأنت حرة .

- وأين ستقيم الفرح ؟ ..

- سوف أقيمه في بولاق .

تراجعت وأنا أقول : ولم لا تقيمه في قصرك في الزمالك . منزل محترم وفخم . وما حواليه رائع وحديقته خلابة .

- إذاً أعطني مفتاحه .

- إنه قصرك يا ولدي .. وما لي فيه تنازلت عنه لـك . أنا أريد أن أراك سعيداً . وكفـى . أعمـل مـا تجـد فيـه سعادتك .

هل كانت أمي امرأة فقيرة مثل زوجة ابنـي ؟ .. وهـل سيعاملها ابني مثلما عامل أبي أمي ؟ .. هل سيخطف منهـا المولود الأول ويتركها ويهجرها ؟ .. لكن أبي كـان رجـلاً سفيهاً مخموراً جاهلاً . وابني ولد متزن لا يقرب الخمر وقد أنهى شهادته الجامعية بتفوق . لا . لا يمكن ..

انشغلت حتى يحدد ميعاد الفرح بتفقد أملاكـي الزراعيـة والعقارية . ولم أصرح له بأني السبب المباشر في اسـتمرار حبيبته في تعليمها . ويبدو أن الفتاة لم تصرح له أنها تتلقـى معونة شهرية من صندوق الزمالة المزعوم في شركة أبيهـا المتوفى . ويبدو أنه يمدها بالمال من مصـروفه الخـاص ، لذلك كتمت عنه ذلك الأمر حتى لا يتوقف عن الدفع .

وقد كتبت إيصالات عمارة البرج الواقعة على النيل . تلك العمارة التي كنت أحتفظ فيها بشقة أخلد إليها كلما داهمتنـي الآلام . أؤجرها أحياناً مفروشة وأتركها دون إيجار أحيانـاً أخرى حتى أخلد إليها . وناولت البواب الإيصـالات ليقـوم بتجميع إيجارات الشقق وإعطائها له . وذهبت إلى المصرف الواقع بالدور الأرضي لأتقاضى الإيجار منه وأودعـه فـي حسابي الجاري .

دخلت على مدير المصرف . نهض مبتهجاً وصافحني .

- أهلا مدام دليلة .. لحظة وسوف يكـون الصـك فـي يدك .

انتظرت . ودخلت امرأة وقـورة وصـافحها . وقالـت بعصبية اندهشت منها لأنها تمثل عصبيتي :

- أنت المدير .

أجاب الرجل بكل احترام :

- نعم ..

قالت وهي لا تزال غاضبة :

- أرجوك أن تعلم موظفين البنك الأدب .. فليـس مـن الذوق أن يركن امرأة عجوز مثلي . ويهملني ذلك الإهمال .

قال : كيف ؟ .. هل هذا معقول ؟ .. ما اسم سيادتك ؟ .. سوف أحمل لك المبلغ الذي تطلبينه على الفـور .. وأنـت جالسة هنا في مكتبي ..

قالت المرأة : أنا إخلاص عبد الفتاح وجدي .

نفس الاسم المكتوب في شهادة ميلادي .إخـلاص عبـد الفتاح وجدي . إنه نفس اسم أمي . هل تكون هـذه السـيدة الوقورة هي أمي ؟ ..

نهضت وهي تجلس ودنوت منها وسألت :

- هل كان لك زوج اسمه محمود شكري .

أعرضت عني وهي تقول :

- لعنة الله عليه .

سألتها : وهي لا تنظر إلي .

- وهل كان لك منه بنت ؟ ..

نظرت إلي وهي تقول : سرقها .. سرقها منـي الكلـب المخمور . لا أعرف أين أراضيه .. كان نصاباً سطا علـى فكري وسطا على ابنتي .إن النار تشتعل فـي قلبـي كلمـا تذكرتها .. هل تعرفين أين يقيم ؟ ..

قلت مبتسمة وعيناي تغرورقان بالدموع :

- إنه الآن يقيم في مقابر الخفير .. أما البنت فهي تقـف أمامك الآن .

تأملتني المرأة والدموع تنهمر من عينيها من أثر الذكرى الأليمة . ومن أثر المفاجأة الغريبة المذهلة . نهضت المـرأة وأمسكت بكتفي وتأملتني . ومدير المصـرف مشـدوه مـن المفاجأة . ثم ضمتني إليها بعصبية . كأنما تريد أن تفرغ في كل آلام السنين القاحلة . وطفقت تقبلني في كل جـزء مـن وجهي . وتعود تتأملني . ثم تعـود تقبلنـي . وأنـا أقبلهـا ودموعي تنهمر . ودموعها لا تتوقف . امرأة في الستين . يبدو أنها تمارس الرياضة باستمرار .مشدودة القامـة كأنهـا بطل من أبطال كمال الأجسام . ويبدو من مظهرها أنها ثرية . وأنها معتزة برأيها وكرامتها وعزة نفسها . لقد أدركت لـم هرب أبي من هذه المرأة . كان يريد امرأة لا كرامة لها ولا عزة نفس . وشعر أنه سوف تكون أيامه معها كلها مشادات ومشاجرات . وقد يكون قد أدرك أنها لن تسمح له أن يعنفها أو يمس كرامتها أو يهينها فأنسحب هارباً منها .

لا تعرفين كيف كان وقع المفاجأة علي . خاصة بعـد أن عرفت أن شقتها قريبة من المصرف . وأنها تقع على النيـل

مباشرة . وأنها سيدة مبسوطة الحال . بل كانت تعمل بالتعليم حتى أحيلت إلى المعاش . ولم تفكر فـي الـزواج بعـد أن هجرها زوجها وسرق منها ابنتها . لعل نفسها عافـت كـل الرجال ، فصارت لا تهفو إليهم . وصـرت أنـا أهـرب بأولادي من أزواجي . وافتخرت بها لما عرفت أنها جامعية مثقفة وخدعها أبي الجاهل بماله وجاهه . أوقعها في شـرك الافتتان به ولما لاحظ أن حياته معها ستكون مغلولـة أفلـت بالغنيمة التي أنجبتها حتى يبعث في قلبها العذاب حتى نهايـة العمر . كل ذلك نكاية فيها وفي عـزة نفسـها واعتـدادها بشخصيتها.

أنت لا تدركين كم كانت فرحة الأولاد حينمـا شـاهدوا جدتهم . وكانوا جميعاً عندي في زيارة لي . وأرادت الجدة العجوز أن تؤكد لهم أنها جـدتهم أبـرزت وثيقـة الـزواج وبطاقتها الشخصية . ولم يكن هناك حاجة لإثبات ذلك لأنهـا في غنى عن ابنتها صاحبة الحسب والنسب والثـروة . ولا تقل عنها حسباً ونسباً وثروة .

لقد تحررت من كل الأزواج الآن . وتحررت من العقـدة النفسية التي كانت تحكم تصرفاتي . غير أني مثل أمـي لـم أفكر أن أتزوج مرة أخرى بعد أن تم طلاقـي مـن جميـع أزواجي .

تمت في يوم ١٥ / ٤ / ١٩٩٨ بالرياض